

3 me Année, No. 104.

Lundi-1-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٠٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — أول يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

كلكم حواريون فمن يهوذا ؟

لا تسمع من أى انسان فى أى مكان إلا تذمراً على حال المجتمع ، وتضجراً من نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسى تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ، ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذه الشكاة : أضاعوا استقلال البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخطلهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة ؛ وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برّة من أرواح الشباب فى ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أموال الأمة فى « قانون التضمينات » ، ثم أصبحنا و إذا المكان خلاء ، والاشارة أمر ، والكلمة رجاء ، والكرامة ضراعة ! !

أجل ! يقول كل سياسى هذا الكلام ، ويلوم هذا الملام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الانجليز أكرموه فدفنوه ! !

***

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج فى صدره . والأسى يتلظى على وجهه ، كيف تحكمت المحاباة فى دوائر الحكم ، وفشا التواكل فى دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » فى التعيين زور مع التوصية ، والكفاية البارعة فى الترقية خُرْق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ : ثم ترى «الأقلام» غاصة بالكتبة ، والمكاتب مكتظة بالأضابير . والوزارات مزدحمة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه . فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هــذا الاتهام ، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب ! !

* * *

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهش : متى كان البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة ؟ ؟

كان الأدب سبيلاً بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً بين الجمال والحس ، ودليلاً بين الهوى والخير ، ونسباً بين القرابة والبعد ، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلا من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة !

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلماً مسوح الأدب ، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة فى كل من كتب ! !

* * *

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنَين تنهلُّ على رُدنه العريض انهلال القَطْر : لم يبق للدين فى هذه الدنيا سلطان ، ولا للخلق فى هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة فى هذه المادية قيمة ! ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء ، فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ، ويتأبهون عن العامة ، ويمدون أعينهم لشهوة الحياة ، ويُذهبون أنفسهم على فتنة الحكم ، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد ! !

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويهتم هــذا الاهتمام ، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا !

* * *

وما من تاجر تعامله ، أو صانع تقاوله ، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش ، وأثْرَوا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معانى النهب ، وحيلة من حيل الشطارة ؛ فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفى حسك لا محالة أنك مغبون فى السعر ، أو مخدوع فى النوع ، أو مظلوم فى التقدير !

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير أن يَصْدُقوك فى البيع ويكذبوك فى التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولا يزيد رَجْعُهم من غشه على مليم !

* * *

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممض والزراية الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل :

إذا كنتم يا قوم جميعاً حَوَارِيِّين ، فمن الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين ؟ ؟ كلكم يلوم فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟

وعظ مالك بن دينار عظة تقاطرتْ عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه ! فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك عينه ! وقال ويحكم ! كلكم يبكى فمن سرق المصحف ؟ ؟

احمد حسن الزيات

دموع

من رسائل «الطائشة» (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورسائلُ هذه الطائشة إلى صاحبها، تُقرأُ في ظاهرها على أنها رسائلُ حبٍّ، قد كُتِبَتْ في الفنون التي يترسّل بها المشاق؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر، تُقرأُ به على أنها تاريخُ نفسٍ مُلتاعةٍ لاتزال شعلةُ النار فيها تتنمّى وترتفع؛ وقد فدحتها الحياةُ إذ حصرتها في فنٍّ واحدٍ لا يتغير، وأوقعتها تحت شرطٍ واحدٍ لا يتحقّق، وصرّفتها بفكرة واحدة لا تزال تخيب

وأشدُّ سُجُون الحياةِ فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها، لا هو مُستطيعٌ أن يدعها، ولا هو قادرٌ أن يحققها؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه ما يمتدُّ ولا يزال كأنه على أوّلِه لا يتقدم إلى نهاية؛ ويتألم مايتألم ولا تزال تُشعِره الحياةُ أن كل مافات من العذاب إنما هو بدءُ العذاب

والسعادةُ في جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكرٌ غيرُ مقيّدٍ بمعنىً تتألم منه، ولا بمعنىً تخاف منه، ولا بمعنىً تحذَر منه. والشقاءُ في تفصيله وجملته انحباسُ الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصوّرةَ التي يبرقُ شعاعُها وتكاد تقومُ بازاء نفسها كالمرآة بازاء الوجه. وهي فيها عذبةُ الكلام من أنها مُرّةُ الشعور، متّسقةُ الفكر من أنها مختلّةُ القلب، مُسدّدةُ المنطق من أنها طائشةُ النفس. وتلك إحدى عجائب الحب؛ كلما كان قفراً مُمْحِلاً اخضرّت فيه البلاغةُ وتفنّنَتْ والتفّتْ، وعلى قِلّةِ المُتْعة من لذّاته تزيد فيه المتعةُ من أوصافه. وكأنّ هذا الحبّ طبيعةٌ تُروَى بالنار فتخصِبُ عليها وتتفتّق بمعانيها، كما تُروى الأرض بالماء فتخصب وتتغطّى بنباتها؛ فان رَوِيَ الحبُّ من لذّاته وبَرَدَ عليها، لم يُنْبِتْ من البلاغة إلا أخفّها وزناً وأقلها معانيَ، كأوّلِ ما يبدو النباتُ حين يتفطّر الثرى عنه؛ تراه فتحسبه على الأرض مَسْحَة لونٍ أخضر؛ أو لم يُنبِتْ إلا القليلَ القليلَ كالتّماشيب (١) في الأرض السّبِخَة

إن قصةَ الحب كالرواية التمثيلية، أبلغُ ما فيها وأحسنُه وأعجبُه ما كان قبل «العُقدة»، فاذا انحلت هذه العقدة فأنت في بقايا مفسّرةٍ مشروحةٍ تريد أن تنتهي، ولا تحتمل من الفن إلا ذلك القليلَ الذي بينها وبين النهاية

***

وهذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها:

...

ماذا أكتبُ لك غيرَ ألفاظ حقيقتي وحقيقتك؟

يُخيَّل إليّ أن ألفاظَ خضوعي وتضرّعي متى انتهت إليكَ انقلبتْ إلى ألفاظ شِجارٍ ونِزاع!

أيُّ عدلٍ أن تلمسكَ حياتي لَمْسَةَ الزهرةِ الناعمة بأطراف البنان، وتَقذِفني أنت قذْفَ الحجر بملْءِ اليدِ الصلْبة مُتَمَطِّيةً فيها قوّةُ الجسم؟

جعلْتَني في الحب كآلةٍ خاضعةٍ تُدار فتدور، ثم عَبِثتَ بها فصارت متمرِّدةً تُوقَف ولا تَقِف؛ والنهايةُ — لا ريبَ فيها — اختلالٌ أو تحطيم!

وجعلتَ لي عالَماً، أما ليلُه فأنتَ والظلامُ والبكاء، وأما نهارُه فأنتَ والضياءُ والأملُ الخائب. هذا هو عالَمي: أنتَ أنت...!

سمائي كأنها رُقعةٌ أُطبقتْ عليها كلُّ غيوم السماء، وأرضي كأنها بُقعةٌ اجتمعتْ فيها كلُّ زلازلِ الأرض! لأنك غيمةٌ في حياتي، وزلزلةٌ في أيامي

(١) نحن لم نخترع الطائشة، فهي فتاة متعلمة أديبة، تكتب كتابة بليغة، وقد أحبت رجلا متزوجاً فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع ما يطمع فيه، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضت. وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة، فكانت تقول: إنها منهن كالغائب المحكوم عليه، لا هو يملك دفاع الذنب ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب

(١) أعشاب قليلة متفرقة

يا بُعدَ ما بين الدنيا التي حولى وبين الدنيا التي فى قلبي!

* * *

ما يَحْمِلُ منك أن تُلزمني لومَ خطأ أنتَ المخطىءُ فيه

سَلني عن حبي أُجبكَ عن نكبتى ، وسَلني عن نكبتى أُجبك عن حبي

كان ينبغى أن تكونَ ليَ الكبرياءُ فى الحب ، ولكن ماذا أصنع وأنت منصرفٌ عني ؟ وَيلاهُ من هذا الانصرافِ الذى يجعل كبريائى رِضىً منى بأن تنسى !

ليس لى من وسيلةٍ تَستعطفكَ إلا هذا الحبّ الشديد الذى هو يَصُدُّك ، فكأن الأسبابَ مقلوبةٌ معى منذ انقلبتَ أنت

ويخيّل إلىّ من طُغيان آلامى أن كلّ ذى حُزنٍ فعندى أنا تمامُ حُزنه !

ويخيل إلىّ أنى أفصحُ من نَطقَ بِآه !

عذابى عذابُ الصادقِ الذى لا يعرفُ الكذب ، بالكاذب الذى لا يعرف الصدق

كم يقول الرجالُ فى النساء ، وكم يَصفونهنّ بالكيد والغدر والمكر ؛ فهل جئتَ أنتَ لتُعاقِبَ الجنسَ كلَّه فيّ أنا وحدى . . .

ما لِكلامى يتقطّع كأنما هو أيضاً مختنق ؟

* * *

لَشدّ ما أتمنّي أن أشتريَ انتصارى ، ولكن انتصارى عليك هو عندى أن تنتصر أنت

إن المرأة تطلب الحريّةَ وتَلجّ فى طلبها ، ولكن الحياة تنتهى بها إلى يقينٍ لا شكّ فيه ، هو أن الطفَ أنواعِ حريّتها فى الطف أنواع استعبادِها

حتى فى خيالى أرى لكَ هيئةَ الآمر الناهى أيها القاسى . لا أحبُّ منك هذا ، ولكن لا يعجبني منك إلا هذا . . . !

ويزيدك رِفْعةً فى عينى أنك لم تحاول قطُّ أن تزيد رِفعةً فى عيني

فالمرأة لا تحبّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يَلفِتَها دائماً ليرفعَ من شأنه عندها

إن الطبيعة قد جعلت الأنوثةَ فى الانسان هى التى تَلفِتُ إلى نفسها بالتصنُّع والتزَيُّدِ ، وعَرْضِ ما فيها وتَكلُّفِ ما ليس فيها ؛ فان يَصْنَع الرجلُ صنيعَها فما هو فى شىءٍ إلا تزيين احتقارِه !

التّزَيُّدُ فى الأنوثة زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل ، ولكن التّزَيُّدَ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى !

* * *

ارْفع صوتك بكلماتى تَسمعْ فيها اثنين : صوتَك وقلبى

ليست هى كلماتى لَدَيك أكثرَ مما هى أعمالك لَدَيّ

وليس هو حبي لك أكبرَ مما هو ظلمُكَ لى !

ما أشدَّ تعَسى إذا كنتُ أخاطب منك نائماً يسمعُ أحلامَه ولا يسمعني !

ما أتعسَ من تُبكيه الحياةُ بكاءَها الفاجىءَ على ميّتٍ لا يرجع ، أو بكاءَها المألوفَ على حبيبٍ لا يُنال !

* * *

ولكن فَلأصبرْ ولأصبرْ على الأيام التى لا طعمَ لها ، لأن فيها الحبيبَ الذى لا وفاءَ له !

إن المصابَ بالعمَى اللّونيّ يرى الأحمرَ أخضر ، والمصابَ بعمَى الحب يرى الشخصَ القفْرَ كله أزهار

عمًى مركبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحةٌ تَعبَق

وعَمى فى الزمن أيضاً أن ينظر إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ، فيرى الأيام كلها فى حكم هذه الساعة

وعَمى فى الدم ، أن يَشعر بالحبيب يوماً فلا يزال من بعدها يُحيى خياله ويغذّيه أكثرَ مما يُحيى جسمَ صاحبه

وعَمى فى العقل ، أن يَجعلَ وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجه النهار على الدنيا ، تَظهر الأشياءُ فى لونه ، وبغير لونه تنطفىء الأشياء

وعَمى فى قلبى أنا ، هذا الحبُّ الذى فى قلبى !

* * *

ليس الظلامُ إلا فِقدانَ النور ، وليس الظلمُ فى الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم

وظلمُ الرجالِ للنساء عملُ فِقدانِ المساواة لا عملُ الرجال

كيف تَسخرُ الدنيا من متعلّمة مِثلى ، فتضعُها موضعاً من الهوان والضعف بحيث لو سُئلتْ أن تكتب (وظيفتَها) على بطاقة ، لما كتبت تحت اسمها إلا هـذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . . ؟

وحتى فى ضَعفِ المرأة لا مساواةَ بين النساء فى الاجتماع ، فكل متزوّجة وظيفتُها الاجتماعيةُ أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقةٍ أن تقول إن عِشقَها وظيفتُها . . .

وحتى فى الكلام عن الحب لا مساواة ، فهذه فتاةٌ تُحبُّ فتتكلّم عن حبها فيقال : فاجرة وطائشة ، ولا ذنب لها غير أنها تكلمتْ ؛ وأخرى تحبُّ وتكتم فيقال : طاهرة عفيفة ، ولا فضيلةَ فيها إلا أنها سكتتْ

أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكلُّ فى حرّية الكلمة المخبوءة . . . .

لا لا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى . . .

***

إن القلَقَ إذا استمرّ على النفس انتهى بها آخرَ الأمر إلى الأخذ بالشاذّ من قوانين الحياة

والنساء يُقلِقْنَ الكونَ الآن مما استقرّ فى نفوسهن من الاضطراب ، وسيخرّبنَه أشنعَ تخريب

ويلٌ للاجتماع من المرأة المصرية التى أنشأها ضعفُ الرجل ! إن الشيطان لو خُيّرَ فى غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حرّة متعلمة خياليّة كاسدة لا تجد الزوج . . . !

ويلٌ للاجتماع من عـذراء بأثرةٍ خيالية ، تريد أن تفرّ من أنها عذراء ! لقد امتلأتِ الأرضُ من هذه القنابل . . . ولكن ما من امرأةٍ تفرّطُ فى فضيلتها إلا وهى ذنبُ رجل قد أهمل فى واجبه

***

هل تملك الفتاةُ عِرْضها أوْلا تملك ؟ هذه هى المسئلة . . .

إن كانت تملك ، فلها أن تتصرّفَ وتعطى ، أوْ لا ، فلماذا لا يتقدّمُ المالك . . . ؟

هذه المدنية ستنقلب إلى الحيوانية بعينها ، فالحيوانُ الذى لا يعرف النسبَ لا تعرف أنثاه المرَض

وهل كان عبثاً أن يَفرِض الدين فى الزواج شروطاً وحقوقا للرجل والمرأة والنسل ؟

ولكن أين الدين ؟ وا أسفاه ! لقد مدّنوه هو أيضاً . . . !

***

طالت رسالتى إليكَ يا عزيزى ، بل طاشت ، فأنى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة ، وحين أفقدُكَ أجدُها .

ولقد تكلمتُ عن الدّين لأنى أراكَ أنتَ بنصفِ دين . . .
فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوّجتَ اثنتين . . . . . .
لا لا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى . . . ؟!

(طنطا) طبق الأصل

. . .

الى (ب) فى دمشق :

خير ما أرى لك أن تدع الغد حل مشكلة اليوم ، وليس بين اليوم والغد إلا أن تصبر ، وأنت كالذى رأى نفسه فى غبش الفجر ويزعم أنه أمسى . .
« الرافعى »

٢ - شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولنستعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمه . ويعني السخاوى فى ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل فى عدة فنون مختلفة ؛ ولكنا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى اليه علم الحديث فى عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقادة لايجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المؤرخين المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبى ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الاسناد وتمحيص الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ؛ وكانت براعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه إلى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هى التى تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها

ويحدثنا السخاوى فى ترجمته بأنه شرع فى التأليف « قبل الخمسين » ؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعني وهو فى نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى سنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه فى مكة [١] ، وإذاً فهو قد بدأ التأليف فى سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه فى استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف مزوداً بمادة غزيرة ؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تباعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة

وبدأ السخاوى التأليف فى ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها فى ترجمته ، ولكننا لم نتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة فى الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » و « الغاية فى شرح الهداية » و « الاخبار المكللة فى الأحاديث المسلسلة » و « شرح الشمائل النبوية للترمذى » و « التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبى حنيفة » ، وعدة كتب ورسائل أخرى فى شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذيول لبعض كتب الحديث المعتبرة يذكرها كلها فى ترجمته ، ولايتسع هذا المقام لذكرها [١]

وكتب السخاوى فى هذه الفترة الأولى أيضاً عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجمها ؛ الرحلة الحلبية وتراجمها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته فى تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً فى تراجم شيوخه وأساتذته اسمه « بغية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى »

***

على أن أهم ما فى تراث السخاوى هو مجهوده التاريخى والأدبى ، ففيه يرتفع السخاوى الى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته فى أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد انتهت الينا نخبة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمني فى استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استهل مجهوده التاريخى بوضع كتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » والسلوك الذى وضع هذا الكتاب ذيلاً له هو كتاب « السلوك فى دول الملوك » لتقى الدين المقريزى ، وقد تناول فيه تاريخ دول المماليك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ؛ وتناول السخاوى فى كتابه تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٨٤٥ - ٨٥٧ هـ ؛ وكتبه كما يقرر فى مقدمته نزولاً على رغبة الداوادار يشبك المهدى وزير

(١) السخاوى فى ترجمة نفسه — فى الضوء اللامع فى المجلد المشار اليه — ص ٧٤

(١) راجع الضوء اللامع — المجلد المشار اليه ص ٧٥ وما يليها حيث يعدد السخاوى كتبه وتآليفه

السلطان الظاهر خشقدم[١] ؛ وعنى السخاوى بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة بإسهاب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمنى ؛ وكتب السخاوى أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الأصر »[٢] ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر

وأعظم آثار السخاوى بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع فى عدة مجلدات ويتم عنوانها عن موضوعها ، ويبسط لنا السخاوى موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة احدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة . . . » وقد هيأت حياة السخاوى نفسه وتجواله فى مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء فى عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم فى مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوى بلا ريب أعواماً طويلة فى اعداد مواده وتنظيمها واستكمالها ؛ والظاهر أنه لم يبدأ فى كتابة معجمه إلا فى أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠ هـ واستمر فى الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ؛ يدل على ذلك أنه يصل فى ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر فى خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ[٣]

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة فى التصوير ليس لها نظير فى كتب التراجم الاسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوى فى أعظم خواصه وكفاياته الأدبية نقادة لايجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً فى مواطن كثيرة ، فينزع عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده تحامل بين ؛ وقد ترجم السخاوى كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم — إلا شيخه ابن حجر — لم ينج من تجريحه اللاذع ؛ وتراجم المقريزى وابن خلدون وابن تغرى بردى والسيوطى أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، ففيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطيق عبقرية بارزة من عبقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة ؛ وهو يبدو فى أحيان كثيرة فى حملاته قوياً ضارم الوطأة ، غير أنه يبدو فى أحيان أخرى سقيما تعوزه الحجة فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرد ؛ وقد كان السخاوى أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء قلمه ، وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها فى مقدمة الضوء اللامع فيما يأتى : « ولكني لم آل فى التحرى جهداً ، ولاعدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الأعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان بن ظهيرة المتلى يقولان ، إنك منظور اليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنعش للمقول ، وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه وتمتد اليه الأعناق فى سفره ومقامه ، من زكيته فهو العدل ، ومن مرضته فالضعيف المعلل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت فى حياتى لا ترجمه بما لعله يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوى لنفسه فى كتابه ، كما رأينا ، ترجمة ضافية ؛ ويذيلها بنبذ عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه فى مديحه والاشادة بغزير علمه ، والتنويه بتبوئه مركز الرياسة والزعامة فى علم الحديث ، ومنها ما خصه به بعض خصومه كالبقاعى قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بايراد بعض القريض الذى قيل فى مديحه وتقديره

وقد كان كتاب « الضوء اللامع » حادثاً أدبياً عظيماً ؛ تردد فى كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التى نشبت مدى حين بين السخاوى وبين بعض أقرانه وتلاميذه ولا

(١) التبر المسبوك (ص ٥) — والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ٤٥)

(٢) حصلت دار الكتب أخيراً على صورة فتوغرافية لهذا الكتاب منقولة من نسخة بخط السخاوى نفسه وهى فى مجلد

(٣) يراجع الضوء اللامع — ج ١ ص ١٠١ فى ترجمة ابراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ

سيما البقاعى والسيوطى ؛ واتخذت صوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل ؛ واستمر صداها بدوى مدى حين بعد وفاة السخاوى وخصومه ، وكانت من أهم وأغرب الحوادث الأدبية فى هذا العصر (١)

وكتب السخاوى إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى فى التراجم منها حسبما يذكر كتاب « الشافى من الألم فى وفيات الأمم » وهو ثبت لوفيات الأعيان فى القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر فى مجلد ضخم أسماه « كتاب الجوهر والدرر » ، وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب ، وفى خاتمته ما يفيد أن السخاوى كتبه فى مكة سنة ٨٧١ هـ ؛ وفيه يتحدث بافاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ؛ وما قيل فى رثائه من نثر ونظم

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوى أنه كتبها ، ولكنها لم تصل الينا مثل « التاريخ المحيط » الذى يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ المدنيين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى منوعة منها : ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع فى بيان المساجد والجوامع ، القول التام فى فضل الرمى بالسهام ، عمدة المحتج فى حكم الشطرنج ، الكنز المدخر فى فتاوى شيخه ابن حجر ، القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ؛ ومن هذا الأخير نسخة بدار الكتب

***

ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما الينا ؛ أولهما كتاب « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ، فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات » وهو دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة ، ولا سيما مصر القاهرة ؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التى تقع فيها هذه المشاهد فى أواخر القرن التاسع ؛ وذكر لكثير من المشاهد والمدافن التى لم يعن بها المقريزى فى خططه ، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم ؛ ومن ثم كانت أهمية الكتاب فى تاريخ الخطط المصرية ، إذ نستطيع بالرجوع إلى معالمه أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها فى القرن التاسع الهجرى

وأما الثانى ، فهو كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو رسالة نقدية قيمة ، يعرف السخاوى فيها علم التاريخ ويشيد بفضله ؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التى تدخل فى حيز التاريخ ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الاسلامية التى ظهرت فى مختلف أبواب التاريخ وعصوره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف فى تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين والأطباء والأشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأمهات الكتب التى وضعت فى هذه النواحى المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة

هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوى وآثاره ، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، إذا أردنا أن نفى شخصية السخاوى ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث ؛ وقد كان السخاوى بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الاسلامية والعالم الاسلامى فى القرن التاسع الهجرى

(تم البحث) **محمد عبد الله عنان**

(النقل ممنوع)

(١) سبق أن عالجنا هذه المعارك الأدبية الشهيرة فى بحث مستفيض نشرناه فى مجلة الهلال الغراء (سنة ١٩٣٢)

٢ـ فريزر ودراسة الخرافة (١)

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

ثبتت الخرافة كذلك دعائم الملكية الشخصية وحفظتها ، إذ مما لا شك فيه أن هـذه الملكية متأخرة فى الوجود عن الملكية العامة ، فالناس عرفوا متاع الجمية ومال القبيلة قبل أن يعرفوا مال زيد وعمرو . والملكية العامة نفسها ظهرت فى شكلها الأول على صورة الملكية المقدسة ، فنشأت فى أحضان الخرافة وتربت على حسابها . وقد كان التقديس ولا يزال وسيلة من وسائل احترام الملكية والمحافظة عليها . وللخرافة يد أخرى فى الدفاع عن الملكية ، فقد حاربت السرقة والسراق ، وحمت مال الفرد والجماعة ، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب . وإذا تتبعنا عقائد وتقاليد الأمم الهمجية المعاصرة ، وجدنا فيها خير برهان على هذه القضايا

ففى البولينيز Polynésie ، أحد أقسام الأقيانوسيه ، لا يجرؤ أحد على الاعتداء على أملاك الشيوخ والرؤساء والمحاربين لما لها من صفة مقدسة تبعاً لأصحابها ، فحرام على أى شخص أن يعدو عليها بالسرقة أو النهب أو التبديد ؛ ومن اقترف اثماً من ذلك استوجب غضب الآلهة ولعنة الملائكة والناس أجمعين ، وجر على قبيلته بوجه خاص السخط والنكال لهذا كان عدوّ الجماعة التى تعمل على محاربته ورد المال المسلوب إلى أهله . يقول براون : « إن كل ما يملكه السيد أو يحيط به مقدس فى نظر عبيده من سكان زيلندة الجديدة . لذلك لا يستطيع أحدهم — برغم حبه للتبغ — أن يمس ورقة منه علم أنها من مال السيد . وقد حدث مرة أن أعطى صديق لى حفنة من التبغ الى عبد لم يكد يمضغها حتى علم أنها أخذت من منزل سيده ، فأسقط فى يده ، وسارع المسكين الى مولاه يقص عليه القصص ، ويسأله المغفرة وإباحة التبغ الذى مضغه ، خشية أن يجر عليه صنعه نتائج مهلكة (٢) . » فبيت السيد اذن حرم آمن لا يستطيع مخلوق أن ينتهك حرمته .

وكثيراً ما ترك رؤساء القبائل التى نتحدث عنها أموالهم وأمتعتهم معرضة للجمهور دون أن تصاب بسوء . وإذا أراد فرد عادى أن يحمى ماله ، اكتفى بأن يميزه بشارة من الشارات المقدسة . ووسائل التقديس كثيرة : منها أن يقام فى الحقل شاخص على هيئة صليب أو سمك نهرى خاص (brochet) ؛ أو أن يوضع تحت شجرة الفاكهة صورة فأرة إذا رآها السارق ولى مدبراً ، أو أن يربط فى عنق الشخص خيط أحمر علق فيه رمز لتمساح أو قطة أو وطواط ، تلك الحيوانات التى تثير فى نفوس القبائل الهمجية عوامل الخوف والرعب ، أو التقديس والاحترام ، وقد تحمى قرية بأسرها بواسطة عزيمة أو رقيـة معلقة فى رجل دجاجة ، فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة فى حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة ، وربما كان لها على نفوس متنقيها سـلطان لا يعد له سلطان قوانيننا المنظمة . فكثير من البدو تأنف نفوسهم من الاذعان لأمر ، اللهم إلا ما أملته تقاليدهم الخرافية أو قيودهم الجمية . يقول بعض الرحالة : « انه ما كان يمكن حكم الزيلنديين بمجموعة من القوانين غير تلك التى جاءت بها خرافتهم . ذلك لأن هؤلاء القوم الحربيين يأبون أن يخضعوا اللوائح ومراسيم لم تصدر عن الآلهة ، ولا يترددون لحظة فى أن يرفضوا فى احتقار أى أمر بشرى ، وفوق هذا فانه من الخير أن يقاد شعب قيادة هينة بواسطة خرافة يدين بها بدل أن ترغمه القوة الغاشمة ارغاماً (١) »

وقد حاربت الخرافة السرقة بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب ، فسكان مدغشقر يعتقدون أن من سرق بيضة أصيب بالجرب ، ومن سرق قطعة من الحديد حلت به عاهة جسمية أخرى . وكى يحمى أهل سيام حقولهم ينصبون فيها راية خافقة ، فاذا ما جرؤ لص واعتدى على هذه الحقول أصيب برعدة واضطرب اضطراب العلم الخافق ولم يقو على الهرب . ويقال إن صياداً كان يفقد كل يوم جزءاً كبيراً من صيده ، فرأى أن يحصن شباكه وفخاخه بتلك الراية الآنفة الذكر ، فلم يدن اللص منها فى الغد إلا وارتعدت فرائصـه ، ولم يبرح مكانه حتى قبض عليـه . وجرت عادة السومطريين (سكان سومطرة) أن يبتهلوا الى آلهتهم ويستنزلوا لعنات السماء على من سرق شيئاً من أمتعتهم ، فلا يلبث السارق أن

(١) سـبق القلم فى المقال الأول فعد جزائر السود (Mélanésie) جزءاً من أفريقيـة ، والحق أنها جزء من استراليا (انظر الرسالة عدد ١٠٢) ص ٩٧٩)

(2) W. Brown, New-Zealand, pp. 13 sg.

(1) Thomson, The Storg of New-Zealand, p. 105.

يعلن عن نفسه وعما سرق . ويروى أنه سرق مرة أرز سومطرية ، فأخذت تدعو عنتاً على السارق ، وفى الصباح وجدت الأرز المسروق قد وضع خفية أمام بابها . وهاك نموذجاً من هذه الأدعية الغريبة : « شياطين الماء وملوك الأرض والسماء ، أسألكم المعونة والثأر لى ممن اعتدى علىّ . فان كان السارق رجلاً فيخفق فى جميع مشروعاته ، وليصب بمرض يعذبه عذاباً أليماً دون أن يقتله ، ولتخنه زوجه ، وليعصه ولده ، وإن ذهب الى الحرب فليقتل ، وإن ركب سفينة فليغرق دون أن يعثر له على أثر ، وإن قطع شجرة فلتسقط عليه ، ولتصب الآلهة عليه جام غضبها فتهلك زرعه ولا تمن عليه بشىء يأكله حتى يضطر الى أن يتكفف الناس ولا يجيبون سؤله فيموت جوعاً . وإن كان السارق امرأة فلتبق عاقراً الى الأبد ، وليسىء زوجها معاملتها ، وليهجرها بنوها ، ولتصب بأمراض لا شفاء منها[1] . » ويظهر أن قدماء الأغريق كانوا يلجأون الى أمثال هذه الأدعية والابتهالات لحفظ أموالهم ، فكانوا يكتبونها على ألواح خاصة يضعونها فى الأمكنة التى يراد حمايتها ، ولا يزال بعض هذه الألواح باقياً الى اليوم . وقد استخدموا هذه الأدعية كذلك فى إرغام السارق على الاعتراف بسرقته ، وهذا ضرب من وسائل التحقيق أن عيب بخرافته فهو يمتاز بسهولته . أما الرومان فقد ذهبوا الى ما هو أبعد من ذلك ، واعتقدوا أن هناك إلهاً خاصاً يتولى حراسة الحدود بين الحقول المتجاورة ، فكل من اعتدى على جاره كان عرضة لسخط هذا الإله العظيم . ويخيل إلينا أن إله الحدود هذا يفسر ما كان عليه الرومان الأول من عناية بالزراعة وشؤونها . وجملة القول أن الخوف الناشىء عن أسباب خرافية صرف الناس عن السرقة فى كثير من الشعوب القديمة ولدى القبائل الهمجية المعاصرة ، فنتج عن هذا احترام للملكية الفردية وأمن مكن المالك من الانتفاع بها

ولا يفوتنا أن نضم إلى الملاحظات السابقة ما نشاهده بيننا من أثر الخرافة فى حفظ المال والمتاع . فالعجل إن قيل إنه « للسيد » قضى الليل والنهار فى الحقل وخارج الدار دون أن يصاب بأذى ، وإن كان من عجول عباد الله الآخرين أضحى عرضة للسرقة والنهب والسم والذبح . وكيف لا « والسيد » الذى جاء بالأسير من بلاده كفيل بأن يحمى ماله غائباً أو شاهداً ، حياً أو ميتاً ! ولا أظننا نجهل الأحلام المتواترة والقائلة بأن فلاناً رأى « الامام » مثلا يطارده طوال الليل ، لأنه ، فيما يزعمون ، لم يوف بنذر نذره له من قبل . وما أشنع هذا الزعم الذى يناقض أصلا من أصول الدين ، ويسمح بالتقرب إلى غير الله ، وقد وصل الأمر ببعضهم أن ادعوا أن هذا البلد بلد « الدسوقى » ، والآخر ملك « الهنساوى » ، والثالث من نصيب « العريان » ، ويعنون بذلك أن كل واحد من هذه الأمكنة دخل فى حوزة حارس أمين وحام عظيم . فلم يكن بدعاً أن تلجأ طائفة من الناس إلى نقل ملكيتهم — إن صح هذا التعبير — ولو ادعاء إلى بعض الأولياء والمقربين ليحفظ مالهم من الضياع . أما التمائم والرقى فقل فيها ما شئت ، وحدث عنها ولا حرج : فتارة يقال إن هذه التميمة تحفظ من السرقة والغرق والحرق ، وأخرى يظن أن هذه الرقية ما تلبث فى دار إلا أمنت كل مكروه ، وعلى عادة وضع التماسيح على الأبواب تعتمد على خرافة من هذه الخرافات التى ترمى إلى حماية المال والمتاع ؟

إبراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) بتصرف من كتاب: E. H. Gomes, Seventeen gears..., 64—66

التربية عند الانكليز

التعاون في سبيل تربية الطفل بين المدرسة والمنزل[1]

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المفتش بوزارة المعارف

من مظاهر التربية الحديثة أن التعاون في المدرسة يجب أن يحل بالتدريج محل المنافسة ، وأن المدرسة والمنزل يجب أن يعملا يداً بيد في سبيل تربية الطفل تربية يصلح بها للحياة التي تنتظره ، تربية اجتماعية كاملة ، بحيث يتعود التعاون مع غيره من الصغر ، حتى يستطيع أن يقوم بأعمال جليلة في الكبر . قد لا يستطيع الآباء في المنزل أن يروا الغرض من الحياة أو معنى الحياة ، وقد يكونون محبين لأنفسهم ، يأخذون ولا يعطون . وهنا تبدو الحاجة الى المدرسة ، فانها تأخذ وتعطى ، وتدرك معنى الحياة ، وتستطيع القيام بمساعدة المنزل في تربية الطفل تربية عملية علمية صحية ، تتفق والبيئة التي ينسب إليها

وأحسن الوسائل التي بها يستطيع المنزل والمدرسة معاً إعداد الطفل للحياة الكاملة هي :

(١) العناية بالدور الأول من الحياة وهو دور الطفولة ، فانه هو الأساس الذي يبني عليه مستقبل الطفل وحياته . ولقد بلغت بالانجليز العناية بالطفل لدرجة أنهم يفكرون فيه حتى قبل أن يولد بخمسين سنة على الأقل ، فالطبقة الراقية منهم تفكر في أثر الوراثة ، فلا يتزوج أحد من هذه الطبقة بمن به أو بها مرض من الأمراض العقلية أو العصبية أو الرئوية ؛ خوفاً من التسبب في ايجاد طفل معتوه أو مجنون أو مستعد للسل مثلاً

(٢) أن يعطى الطفل حرية كبيرة لتنمية مواهبه وقواه التي تعد هبة للحياة الاجتماعية ، ولا نقصد بذلك أن ندع الطفل يفعل كل ما يشاء ، بل نعطيه فرصة في أن يعمل ويجرب ، ونراقبه عن بعد حتى يظهر خطؤه ، وندعه يحاول إصلاحه بنفسه ، ونساعده عند الحاجة ، ونعمل على أن يعرف نفسه ، ويعتاد ضبط شعوره وعواطفه ، والصبر ، والتجربة والمثابرة ، والتفكير في الجماعة ، وفي روح الجماعة ، بحيث نضحى في سبيله بكل شيء آخر ؛ فلا نفكر إلا في الطفل وفي تقويمه وتهذيبه ليكون المثل الأعلى في الحياة

(٣) الاهتمام بالألعاب الرياضية ؛ فانها أحسن وسيلة لتقويم خلق الطفل وتقوية جسمه ؛ بها نبث فيه حب العمل والتفكير لا في نفسه بل في الفرقة التي يشترك فيها ، وبذلك نميت فيه ذلك المرض النفسي : مرض حب الذات والتفكير في النفس ليس غير

(٤) الحاجة الى معرفة أن الطفل يحتاج أحياناً الى الهدوء والصمت

(٥) العمل على الاصلاح دائماً . والتفاهم بالمحادثة الودية خير طريقة للعلاج والاصلاح . وإن المراقبة في دور البلوغ ، والمراهقة واجبة ، لأن هذا الدور أكثر أدوار الحياة خطراً

(٦) العناية بالفنون والأعمال اليدوية كوسيلة للنمو العقلي والخلقي وكسب المهارة

(٧) يجب أن يتم التعاون بين المدرسة والمنزل ، للوصول بالطفل الى الكمال . فاذا لم يكن هناك تعاون بينهما فمن المحال أن نصل إلى الغرض الأسمى من التربية

وفي الأمم المتمدينة ، وبخاصة انجلترا والولايات المتحدة بأمريكا تجد الثقة متبادلة بين المدرسة والمنزل ، والرابطة بينهما كبيرة ، يتعاون كل منهما على تثقيف الطفل وإفادته ، فليست المدرسة في واد والمنزل في آخر . وإني آسف لأن أقول إن المدرسة وحدها في مصر هي التي تجاهد منفردة في سبيل تربية الطفل ؛ فالمنزل في الغالب منفصل عنها كل الانفصال ، وقد يهدم ما تبنيه أحياناً . ولا سبب لذلك إلا انتشار الجهل والأمية وحبذا الأمر لو قامت المدرسة بدعوة المتعلمين من الآباء في وقت معين كل ثلاثة أشهر مثلا للتفاهم والبحث معهم في الأمور التي تتعلق بشؤون الأطفال ، والنظر في أحوال التعليم ، ومستقبل التلاميذ ، والعمل على رفع مستواهم العلمي والخلقي والصحي والاجتماعي

وفي (نيويورك) مثلاً تجد المدرسة تعمل على التقريب بينها وبين المنزل ؛ فالآباء في الولايات المتحدة بأمريكا أعضاء عاملون

(١) من كتاب « نظام التعليم في انجلترا » تحت الطبع

فى الحياة المدرسية يذهبون الى المحاضرات العامة التى تلقى فى المدرسة ، ويشتركون فى مناظراتها ، ويساعدون فى مقاصفها ، ويعاونون فى محافلها الاجتماعية

وبأمريكا الآن جمعيات للآباء والمدرسين فى كل مكان تلقى فيها محاضرات عن : أعمال المدرسة ، والغرض من المدرسة ، والطفل ، ونفسيته ، وتربيته ، ومعاملته

والكل يفكر فى الطفل ثقة بأن طفل اليوم هو رجل الغد ، وأثر التربية اليوم يظهر فى الغد ، وما تزرعه اليوم تجنى ثماره غداً . وإن غداً لناظره قريب . والوسيلة الوحيدة لاصلاح الجيل المقبل وترقيته هى العناية بالجيل الحاضر . فاذا عنينا بأطفال اليوم وتربيتهم تربية صالحة فى المدرسة والمنزل ، والملعب ، انتظرنا ثمرة طيبة وشعباً راقياً فى المستقبل

وفى مدارس الأطفال فى (ونتكا) بأمريكا يشترط لقبول التلاميذ أن يقبل الآباء معاونة المدرسة والاشتراك مع موظفيها فى العمل ، وبغير ذلك لا تقبل الأطفال . وفى انجلترا قد بذلت جهود كبيرة فى السنوات العشر الماضية للتوحيد بين هذين العاملين : المدرسة والمنزل ، وتوثيق عرى الرابطة بينهما . ولقد نجحت هذه المجهودات وأصبح الآباء يعنون بأمور التعليم ، يسترشدون برأى المدرسة ، ويستعيرون من مكتبتها إذا شاءوا ، ويدعون للمجتمعات الوسيقية والتمثيلية والرياضية لكى يروا أبناءهم يغنون أو يمثلون أو يلعبون ، ويشاهدوهم كرجال يقومون خير القيام بكثير من الأعمال من إدارة مطعم ، وتنظيف فصول ، وتنظيم حديقة ، ومراقبة ألعاب رياضية ، وإدارة مكتبات ، وتوزيع الأدوات وجمعها بعد الانتهاء منها ، وإصلاح كل ما يحتاج الى الاصلاح فى المدرسة . فالطفل عضو عامل فى المدرسة يعوّد من صغره الاعتماد على نفسه ، والاستعداد للحياة العملية العالمية باشتراكه مع رفقائه فى الفصل والمعمل والمصنع والمحفل والملعب الرياضى

وفى المنزل يجد الطفل الانجليزى مدرسة أخرى صغيرة ؛ فالبيئة علمية ، والجو علمى ؛ أم تعلمه ، وأب يرشده ، وخادم تقرأ له . فالكل يفكر فيه صباحاً ومساء . فى الصباح يأتى الطفل إلى أمه بالصحيفة اليومية فتقرأ له الجزء الخاص به من الصحيفة عن الفيل والنمر مثلاً ، فيعرف ماتم من أمرهما . ثم تقطع له هذا الجزء فيضمه بين كتبه الخاصة ، فى حجرته الخاصة بكتبه ولعبه ، وفى الساعة السابعة مساء يتناول كوباً من اللبن أو فنجاناً من المرق بعد الاستحمام ، ثم تأخذه إلى فراشه ، وتقرأ له بعض الحكايات السارة ، وتنشده شعر الطفولة ، وتغنى له بعض الأغانى بصوت هادىء جميل حتى ينام ، فتتركه إلى الصباح

وترحب المدرسة الانجليزية بالآباء ، وتريهم الأعمال التى يقوم بها أولادهم فيها ، وتعمل على إيجاد روح التعاون بينها وبين المنزل

والمدرس الحازم يستطيع أن يساعد الآباء فى معرفة أن الحياة لا تقصد طفلاً واحداً ، أو أسرة واحدة ، أو مدرسة واحدة ليس غير ، بل تقصد المجتمع الذى ينسب اليه الفرد ، والذى يجب أن يقوم الكل بواجبه نحوه ؛ حتى تزول الأثرة التى تظهر فى بعض الآباء الذين لا يفكرون إلا فى أبنائهم وبناتهم . فالمدرسة تستطيع بمعاضدة المنزل أن تقوم بجلائل الأعمال نحو الأخلاق والانسانية وتحسين المستوى الصحى والاجتماعى والعلمى والخلقى . ولسنا فى حاجة إلى تكرار القول بأن التعاون بين المدرسة والمنزل هو الوسيلة الوحدة لنجاح التعليم . وبالمنتديات يمكن الجمع بين الآباء والمدرسين لاستماع روايات أو مناظرات مثلا يقوم بها الطلبة والمدرسون ، وبهذه الطريقة تتم الرابطة ، ويلم الشعث ، ويعمل الجميع لاسعاد الطفل وتربيته تربية حسنة

ولقد أوحت روح (بستالوتزى) إلى المدرسين بأن يكسبوا تقدير الآباء ، فان هذا التقدير هو العامل الأول لنجاح الادارة المدرسية ، وإن كانت المدرسة فى حاجة فانها فى حاجة إلى مساعدة المنزل ؛ فالمدرسة هى التى تتسلم البضاعة التالفة ؛ يأتى الطفل اليها يتكلم لغة غير لغتها ، ويتخلق بأخلاق سيئة ، وحينئذ نجد عمل المدرسة مضاعفاً ؛ فتبتدىء تعلمه لغة جديدة أو لغتين ، وبجانب بث الأخلاق الفاضلة فيه تعمل على تقويم المعوج منها

وإنى أعتقد أن الطفل يتمنى أن يأخذ والده فى إحدى يديه ، وأستاذه فى يده الأخرى ؛ حتى يعمل الكل وحدة « ثلاثية » متينة الاتصال تعمل لشىء واحد هو رقى المجتمع ، والوصول إلى الحياة الكاملة ؟!

محمد عطية الابراشى

٣ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

شذرات من كلام محمد اقبال

أقف على ما كتبته فى المقال السابق عن موقف المسلمين من تقليد أوربا بشذرات من الفيلسوف الشاعر الهندى محمد اقبال تؤيد ما قلت. وهى شذرات من كتابه جاويدنامه، وهو رحلة خيالية فى الأفلاك والجنة تضمنت آراء اقبال فى الاسلام والمسلمين، وسأتكلم عنها فى مقالات أخرى، وإن تكن هذه الشذرات طويلة فالحق لا يضره الطول. قال على لسان سعيد باشا حليم حينما لقيه فى فلك عطارد مخاطباً المسلم:

« قم فصوِّر بنفسك عالماً آخر، وامزج العشق بالذكاء الباهر. إن شعلة الأفرنج أصابها الماء فهى خامدة، فالعيون ناظرة والقلوب هامدة؛ أصابت سيوفهم منهم المقاتل، فسقطوا كصيدهم فى المجاهل. فلا تطلب الحرقة والنشوة من كرومهم، ولا ترجُ عصراً جديداً فى أفلاكهم. فى نارك أنت حرقة الحياة ونورها، وعليك أنت بعثها ونشورها

قال مصطفى[1] وهو يتغنى بالتجديد: « لا بد أن نمحو كل قديم عتيد. » إن الكعبة لا تجدد فيها الحياة، إذا جاءها من أوربا اللات ومناة. وا أسفا ليس فى رباب التركى نغمة جديدة، جديده قديم أوربا الغالبة. لم يكن غير هذا النفَس فى صدره، ولم يكن سوى هذا العالم فى ضميره. فلا جرم سكن إلى العالم الموجود، وذاب كالشمع فى حرقة العالم المشهود. وكم فى طباع الكائنات من طريف وجديد، ليس فى تقويم الحياة هذا التقليد، إن القلب الحىّ يخلق العصور، وينفر من التقليد أى نفور

إن يكن لك قلب المسلم الولهان، فانظر فى ضميرك والقرآن، كم عالم جديد فى آياته، وكم عصر مطوى فى آناته[2]. وحسب العصر الحاضر واحد من عوالمه، إن نفذ قلبك إلى بواطنه، إن المؤمن من آيات الله الوهاب، يلبس العوالم لبس الثياب. كلما قدم عليه عالم منحه القرآن عالماً آخر... الخ

وهذا حديث من الكتاب نفسه بين نادر شاه ملك إيران وزنده رود (محمد اقبال) حينما التقيا فى الجنة:

نادر:

مرحباً بالشاعر المشرقىّ، الذى يجدر به اللسان الفارسىّ، إنى محرَم للأسرار فأفش أسرارك، ماذا عندك عن ايران الوطن المبارك؟

زنده رود:

فتح عينه على نفسه حيناً، ثم وقع فى الشرك سريعاً. هو صريع دلال أوربا الفاتنة هام بها فاتبعها، وفتن بزينتها فقلدها، همّه اليوم الملك والنسب، وذكر سابور وتحقير العرب، أوقاته من الواردات خالية، يطلب الحياة من القبور البالية. تحدث بالوطن وذهل عن نفسه، وترك حيدراً[1] وهام برستمه! الخ

ويقول على لسان أبدالى[2] ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر حينما لقيه فى الجنة

أبدالى:

ذهل الشرق عن نفسه بما قلد الغرب واتبعه، ولابد للشرق أن ينقد الغرب فيفهمه، ليست قوة الغرب من العود والرباب، ولا من رقص الفتيات بغير حجاب، ولا من سحر ورديّات الخدود، ولا من الساق العارية والشعر المجدود. وليست هيبة الغرب من نبذ الدين، ولا بهاؤه من حروف اللاتين. ما قوة الأفرنج إلا العلوم والفنون، وما ضوء مصباحهم إلا من هذه النار

ما الحكمة صورة من الزى واللباس، وما تمنع العلم والفضل عمامة على الراس؛ إن للعلم والفن أيها الشاب النافر، سراً وراء هذه الظواهر؛ وإنما يغني فى هذه السبيل العين النظارة، لا هذه العمارة[3] أو تلك العمارة؛ حسبك الفكر النفاذ، وناهيك بالطبع الدرّاك. إن مُلك المعنَى لم يحجّره أحد، ولا يناله إلا الجهاد والجلد، لقد غفل التركىّ عن نفسه، وسكر من الأفرنج رأسه،

وقع تحريف فى المقال السابق فى كلة « طوينا مسافة القرون » فكتبت: « طوينا مسألة القرون » كذلك حرفت « أين ثم أين » إلى « آمين ثم آمين »

(١) يعنى الغازى مصطفى كمال باشا (٢) جمع آن

(١) على بن أبى طالب (٢) أحمد خان أبدالى ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر الهجرى (٣) العمارة غطاء الرأس

فشرب من يدهم السم حلو المذاق ، وترك عامداً ترياق العراق ، ولست أدعو له إلا بالهداية والسداد . إن عبد الأفرنج قد أولع بالظهور ، فأخذ عنهم الغناء والفجور ، يضنى روحه فى اللهو والفتون ، ويستصعب الجد فيركن إلى المجون . يؤثر السهل ايثاراً لراحته ، ويرى فى السهل كفاء لفطرته . وإنما طلب السهل فى هذه المحن ايذان بأن الروح قد فارق البدن »

ويقول فى خاتمة كتابه خطاباً للجيل الجديد :

« آسيا موطن الشمس ومشرقها ترى غيرها وتحتجب عن نفسها ، قلبها محروم من الواردات الجديدة ، فهى اليوم لا تزن شعيرة ؛ وقتها فى معترك هذه الدار جامد ساكن لا يلذ التسيار . هى صيد الشيوخ وقنيص الملوك ، وغزال فكرها ظالع منهوك . العقل فيها والدين والعلم والشرف والعار من ربقة السادة الافرنج فى إسار . هجمتُ على عالم أفكارها ، ومزقت حجاب أسرارها ، وجعلت قلبي فى صدرى دماً حتى صبغت عالمها لوناً آخر . . . . شباب عطاش كؤوسهم فارغة ، ووجوههم نضرة ، ورؤوسهم مضيئة ، وأرواحهم مظلمة ، ضعاف البصر قد حرموا اليقين والأمل ، لم تدرك أعينهم شيئاً فى هذا العالم ، يكفرون بأنفسهم ويؤمنون بغيرهم ؛ إن منكر الحق عند الشيوخ كافر ، ومنكر نفسه عندى أكفر »

* * *

ثم أعود الى الكلام فيما فعله الكماليون فيما يسمى « النهضة التركية الأخيرة » ، وأقدم قبل الكلام ترجمة البلاغ الذى أذيع على الناس قبل فتح المجلس الكبير بأنقرة ليتبين القارئ أين ابتدأت هذه النهضة وأين انتهت :

نشرت الهيئة التمثيلية التى مهدت لاجتماع مجلس الأمة الكبير بأنقرة هذا البيان قبل فتح المجلس :

١ — بمنه الكريم سيفتتح مجلس الأمة الكبير فى أنقرة يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان بعد صلاة الجمعة

٢ — اختير يوم الجمعة لفتح مجلس الأمة الكبير الذى سيؤدى الوظائف الحيوية الخطيرة مثل انقاذ مقام السلطنة ، والخلافة ، واستقلال الوطن . ويستفاد من بركة هذا اليوم فتؤدى صلاة الجمعة فى جامع الحاج بايرام ويحضرها المبعوثون كلهم ، للتيمن بأنوار القرآن والصلاة . وبعد الصلاة يسار باللحية المباركة واللواء الشريف إلى الدائرة المخصوصة . وقبل الدخول إلى الدائرة يتلى دعاء وتذبح الذبائح . وفى هذه المراسم تنظم الفرق العسكرية ، من الجامع الى الدائرة المخصوصة

٣ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يبدأ اليوم بتلاوة الختمة الشريفة والبخارى فى مركز الولاية بترتيب الوالى ، وتؤخر الأجزاء الأخيرة من الختمة الشريفة لتتلى أمام الدائرة يوم الجمعة بعد الصلاة

٤ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يشرع منذ اليوم (فى كل الجهات) فى قراءة الختمات الشريفة والبخارى ، وتقرأ الصلوات الشريفة على المنارات يوم الجمعة قبل الأذان ؛ وحينما يذكر أثناء الخطبة الاسم الهمايونى العظيم اسم حضرة صاحب الخلافة سلطاننا يدعى لصاحب الشوكة ولممالكه الشاهانية ولرعاياه بالخلاص والسعادة . وبعد أداء الصلاة يكمل الختم وتلقى المواعظ فى تبيين خطر وقداسة المساعى الملية التى يراد بها خلاص مقام الخلافة المعلى والسلطنة وأقسام الوطن كلها ، وفيما يجب على كل فرد من المؤازرة فى تأدية الوظائف الملية التى يقوم بها المجلس الكبير المؤلف من نواب الأمة . ثم يدعى بالخلاص والسلامة والاستقلال لخليفتنا وسلطاننا ، وديننا ودولتنا ، ووطننا وملتنا ، وبعد إيفاء هذه المراسم الدينية ، والخروج من الجامع ، يجتمع الناس فى مركز الحكومة فى كل البلاد العثمانية ، للتهنئة بفتح المجلس . ويقرأ المولد الشريف فى كل جهة قبل صلاة الجمعة بصورة مناسبة

٥ — تتخذ كل الوسائل لاذاعة هذا البيان ، ويبلغ سريعاً إلى أبعد القرى ، وأصغر الفرق العسكرية ، وكل مؤسسات الدولة ، ويعلق فى لوحات مخصوصة ، ويطبع ويوزع مجاناً حيثما أمكن ذلك

٦ — نضرع الى جناب الحق أن يهبنا التوفيق الكامل

باسم الهيئة التمثيلية

مصطفى كمال

ذلك ما افتتح به الكماليون عملهم ؛ فلما أتيح لهم النصر شرع القادة منهم يتنكرون للاسلام . وكان أشدهم إفراطاً فى ذلك الغازى مصطفى كمال باشا الذى كان المسلمون جميعهم يعدّونه بطل أبطالهم غير مدافع . ولست أدرى أيعود الكماليون

فيتوسلون بالدين إذا وقعوا فى محنة أخرى . ولست أودّ لهم المحن بل أدعو لهم بالعافية والهدى . حدثني من أثق به عن الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله أن الغازى قال له مشيراً إلى القرآن الكريم : « لن تفلحوا ما دام هذا الكتاب البالى إمامكم » وحدثنى آخر من كبار الرجال أن الغازى رمى بالمصحف ساخراً ؛ وكان يأمر فتترجم له بعض آياته ليتخذها هزواً . ألم يكن للنهضة التركية بدّ من هذا ؟ لقد سبقنا الأوربيون فى كل سبيل وما سمعنا عن ملك من ملوكهم أو زعيم من زعمائهم أنه فعل هذا بالتوراة والانجيل . ولو فعله بعضهم لكان فعلة شنعاء لا يقتدى بها العقلاء . وقد قرأت فى إحدى الجرائد الانكليزية منذ سنين أن ملك الانكليز يواظب على قراءة فصول من التوراة منذ أربعين سنة لأن أمه أوصته بهذا

وقد كتب الكماليون فى دستورهم أول الأمر أن دين الدولة الاسلام ، ثم عادوا فمحوا ذلك منادين بأن الدولة لا دين لها . ثم عمدوا إلى القوانين المدنية ، وهى مستنبطة من الشريعة الاسلامية فنبذوها واستبدلوا بها قانون سويسرا . وليسوا أول من يلام على ذلك ، فقد سبقهم المصريون فسنوا للمسلمين هذه السنة السيئة ، ولكن الكماليين كانوا بدعاً من الأمم فى اختيار قانونهم الجديد . فما كان هذا القانون وليد عاداتهم ، ولا نتيجة حاجاتهم ، ولا منتهى ما رآه أولو الأمر منهم ، بل أتوا بالقانون السويسرى مجموعاً مطبوعاً مجلداً ، وعرض على المجلس هذا المجلد مُطبقاً ، وأخذت الآراء فأجمع عليه الأعضاء ، فانتقل قانون سويسرا إلى الأناطول فى ساعة ، وصار الأناطول سويسرا ، وصار أهله سويسريين ، وأنجاهم الله من القوانين الاسلامية البالية ، إذ أنزل عليهم قانوناً جديداً مطبوعاً مجلداً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !

***

ومما ابتدعه الكماليون التأذين باللغة التركية . وقد ترجموا القرآن من قبل إلى لغتهم فعذرناهم وقلنا لا بد للمسلم أن يفهم قرآنه ، والتركى لا يستطيع أن يفهم القرآن بالعربية فلا مناص من ترجمته إلى لغته ؛ والأمر فى الأذان غير هذا ، فهو تسع كلمات معدودات صارت شعاراً للمسلمين فى أقطار الأرض كلها يفهمونها على اختلاف لغاتهم ؛ ليس فى الأرض مسلم لا يعرف معنى الله أكبر ومحمد رسول الله ، والصلاة والفلاح ، وإن يكن فى الأرض مسلم لا يفهمها وجب عليه أن يفهمها احتفاظاً بهذا الشعار ، واستمساكاً بهذه الكلمات الجامعة بين المسلمين . فما بال الكماليين أصرّوا على التأذين بالتركية ؟ ذلك بأنهم لا يبالون بالرابطة الاسلامية ، وما أحسبهم إن استمرت لهم هذه السيرة إلا سيلغون الأذان كله فيستريح السادة المترفون من هذه الضوضاء . ذهبت مرة إلى جامعة اكسفورد فتمشيت فى إحدى كلياتها مع الطلبة . فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية ، فوقف الطلبة ، وتلا أحد الأساتذة دعاء باللاتينية . ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية أيضاً . وهناك شواهد كثيرة على احتفاظ الأمم فى بعض أمورها بكلمات من لغات غير لغاتها احتفاظاً بذكرى تاريخية أو ابقاء على سنة دينية . وأذكر هنا أن فى اكسفورد تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة ، والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة ، فهل منع هذا الامبراطورية البريطانية من أن تسود العالم ؟ أو كان هذا بعض الأسباب التى مكنت لها فى الأرض ؟

ولا ننسى هنا أن الجامعة المصرية حينما شيد بناؤها على طراز أوربىّ لا مصرىّ ولا عربى لم يُتم بُناتها التقليد ببناء مسجد ، ييسر للطالب المصلى تأدية الصلاة ، فكأنه أكره على ترك الصلاة اكراهاً . وقد تكلمت فى هذا فقيل لى إن فى تخطيط الجامعة مسجداً . ولست أدرى متى يشيد هذا المسجد المخطَّط ؟ لماذا نؤمن ببعض سنن الأوربيين ونكفر ببعض ؟ ولماذا يا قوم نقلدهم فى المراقص ولا نقلدهم فى بناء المعابد فى الجامعات ؟ وقد كان لنا مصليات فى مدارسنا ، وكان لها أئمة يصلون بالطلبة ، ولكننا شعرنا بتوغلنا فى المدنية وتقدمنا فى العلوم والفنون فخجلنا من الابقاء على هذه السنن القديمة فأهملناها فدرست ونسيت !

***

ومما فعله الكماليون آخراً تحويل جامع آيا صوفيا كنيسة بمحو ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث ، والكشف عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية ؛ وقد احتج لهم من يدافع عنهم بالحق وبالباطل بأن بناء المسجد وَهَى ، ولم يبق صالحاً لاقامة الصلوات فجعلوه متحفاً وكشفوا عن هذه الصور الأثرية ، فهل معنى هذا أن

الكماليين أشفقوا على المصلين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يفدوهم برُوّاد المتاحف لا يبالون أن يسقط عليهم المتحف أولا يسقط ؟ هل بلغ الولع بالآثار القديمة عندهم أن يمحوا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان ؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يجعلها من الفنون الجميلة ، ومضت عليها عصور تجعلها من الآثار القديمة

لست أرى فيما صنعه الكماليون بآيا صوفيا إلا إنفاذاً للمنهاج الذي وضعوه . فهذا جامع كان كنيسة معظمة عند النصارى ، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجعلوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها ، وبنوا لها منارتين ، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم : « لتفتحن القسطنطينية ! ولنعم الجيش جيشها ، ونعم الأمير أميرها ! » ولا يزال التركي كلما مر بهذا الجامع ذكر الفتح والفاتح ، وغلبة الاسلام في هذه المدينة ونحو هذا مما لا يلائم « النهضة التركية الأخيرة » ولا يساير المدنية الحديثة ، ثم لا يزال هذا الجامع حسرة في نفوس النصارى ، ما نسوه قط ، وقد أعربوا عن أمانيهم في تحويله إلى كنيسة يوم احتل الحلفاء الآستانة في الحرب الكبرى فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى . فكان لزاماً أن يمحو الكماليون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين ، لينسوا الماضي وينظروا إلى الحاضر . وليتقربوا إلى أوربا النصرانية التي التزموا محاكاتها في كل شيء . وما بالكم أيها المسلمون تكرهون هذا التسامح في الدين وأنتم تزعمون أن دينكم دين التسامح ؟ ستقولون إن أوربا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزيها تسامحاً بتسامح ، ولا يزال كثير من مساجدنا في الأندلس والبلقان كنائس في أيدي النصرانية . وفاتكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لا نبدؤهم به ! ! !

وقد بلغني أخيراً أن الحكومة التركية هدمت المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية في هيبه لي أطه ، هذا المسجد الذي كان يشرف على بحر مرمرة يوحي إلى المسلم أن دينه ينبغي أن يعز في البر والبحر ، فإن صدق هذا الخبر ، ولست على يقين منه ، فهو حلقة من هذه السلسلة

(له بقية) عبد الوهاب عزام

الديمقراطية والانتخاب

في التربية

للأستاذ فخري أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية في نظم الحكم الحديثة ، إذ اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة في الفرصة التي تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم ؛ ففي نصف القرن الأخير جُعلت مرحلة التعليم الأولى في دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية ، لينال كل فرد حظاً من التعليم ، وعاونت الحكومات ذوي المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضي إلى غايات التعليم دون أن يكون فقرهم عائقاً لهم عن ذلك ، وبذا انتشر النور وأطلقت المواهب التي كانت من قبل معقولة

على أن التعليم العام لم يَخْلُ انتشاره من مساوئ : من ذلك أن معظم أبناء الطبقة السفلى يغادرون المدرسة تواً عقب إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويعودون إلى مزاولة مهن آبائهم وينسون ما تعلموه في المدارس إلا النزر اليسير الذي لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص ؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطغى على الأدب العالي ، وتدلت الصحف ، وكثر الكتاب المرتزقون الذين لا يتوخون سوى ارضاء تلك العقلية المنحطة ، وقد آذى هذا الأدبُ المنحط الثقافةَ الرفيعة : إذ اجتذب غير قليلين من المتعلمين تعلماً راقياً ، لأن من طبيعة الانسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها ، إلا أنْ يكون له وازع من نفسه شديد يَقْسِرُهُ على التسامي عن الفضول ؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أُسيءَ استعمالها كما أُسيءَ استعمالُ الكتابة إرضاءً لفضول أشباه المتعلمين ، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثلها

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله في بلاد الغرب التي سبقتنا اليه فهل هو كذلك في مصر ؟ لقد أخذنا

مبدأ التعليم العام فيما أخذنا عن أمم الغرب ، وقلنا : مادمنا نطالب الديمقراطية في السياسة والحكم فلا بد من اتباعها في التعليم ، وما دمنا نريد النهوض ببلادنا فلننشر فيها العلم لننقيها من خرافات الجهل وجموده ، وأغرقنا وتسرعنا في تطبيق ذلك المبدأ شأننا في كل ما ننقل عن الغربيين : فأنشأنا عشرات المدارس وزججنا فيها الناشئين من كل صوب ، وأنفقنا على ذلك الأموال الطائلة ، وتخرج في معاهدنا ألوف الشبان ، فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة فشل لم يكن في الحسبان : فأولئك الشبان يزيدون على حاجة البلاد ، وتعليمهم ناقص مشوه ، وأخلاقهم لا تحمد ، والتعليم عامة يتقدم في طريق الضعف والانحلال سنة بعد سنة باطراد

* * *

ذلك بأننا أخذنا بمبدأ الديمقراطية في التربية مطلقاً غير محدود ، وهو مبدأ غير طبيعي ولا يصلح به وحده مجتمع ولا نظام ، وإنما المبدأ الساري في الطبيعة هو مبدأ الانتخاب : فالأصلح في الطبيعة هو الذي يرقى ويسود ؛ وقد فطن إلى ذلك أول الشعوب أخذاً بالديمقراطية في حياتهم الاجتماعية ونظامهم الحكومية ، وهم اليونان : فديمقراطية أثينا لم تكن في الواقع إلا أرستقراطية إذا تذكرنا أنه كانت بها دائماً طبقتان ممتازتان غير متساويتين في الحقوق والواجبات : طبقة الأحرار وطبقة العبيد . ولما بحث فلاسفة اليونان الكبار في النظم الحكومية لم يؤثر واحد منهم الديمقراطية المطلقة ، ومالوا إلى الأرستقراطية لأنها هي النظام الطبيعي ؛ وحين عالج أفلاطون التربية وضع لها نظاماً أرستقراطياً قائماً على مبدأ انتخاب الأصلح ، لا ديمقراطياً على مبدأ المساواة التامة: فجعل التعليم على ثلاث مراحل يتمتع الجميع بالأولى منها ولا يرتقى إلى الثانية فالثالثة إلا من أظهروا استعداداً طبيعياً لذلك ، ومن المرحلة الأولى يتخرج أرباب المهن اليدوية ، ومن الثانية يتخرج المقاتلون ، ومن الأخيرة الفلاسفة والحكام

فالطبيعة لم تجعل أبناءها متساوين في المواهب ، بل هي ترفع بعضهم فوق بعض درجات ، ومادام هذا كذلك فسيظل في كل مجتمع في كل عصر طبقات متفاوتة ، ولن ترقى أمة إلا أن تعترف ضمناً بالتفاوت بين هذه الطبقات ، والغفلة عن هذا التفاوت خطأ قاتل

وأشهر الشعوب بالديمقراطية في العصر الحديث الانجليز ، ولكن من يتأمل في حياتهم يرى أن ديمقراطيتهم أرستقراطية كديمقراطية أثينا : فالفوارق بين طبقات النبلاء والأوساط والسوقة قائمة محددة يشعر بها أفراد كل طبقة ، والنبلاء يترفعون على من عداهم ترفعاً شديداً ، والآخرون ينظرون إليهم نظرة رهبة وإكبار ، حتى لتكاد تكون طبقة النبلاء هذه أمة داخل أمة ؛ وهذا الشعور باختلاف الطبقات والتسليم به والاعتراف بالأمر الواقع دليل على نزعة الانجليز العملية ، وهو هو سر صلابة بنيان نظامهم الاجتماعي والحكومي ، وخلو تاريخهم من زعازع التقلبات

وهو أيضاً أكبر أسرار نجاح نظم التربية عندهم : فالنظام الارستقراطي يتمثل في المدرسة الانجليزية كما يتمثل في المجتمع الانجليزي : فالتعليم عام مباح للجميع ، ولكن هناك مدارس للخاصة قاصرة على أبناء من يأبون لأبنائهم مخالطة أبناء السوقة ، ومعظم أبناء الطبقة السفلى ينقطعون عن المدرسة بمجرد انهاء المرحلة الاجبارية وينزلون إلى ميدان الحياة العملية ، ونظم المدارس من الشدة والدقة وجوها من النقاء بحيث لا يسمح بالاستمرار في مراحل التعليم إلا لمن حسنت أخلاقهم ونضجت مداركهم ، والحكومة ومجالس الأقاليم والجماعات الخيرية لا تنفق أموالها إلا على النابغين المتفوقين ، وهكذا يبدأ التعليم في أول مراحله ديمقراطياً عاما ثم تتناوله يد الانتخاب بالتهذيب والتنقية فلا يبلغ القمة إلا الأكفاء خُلُقاً وموهبة ، ولا يصل إلى مراتب الادارة والحكم وقيادة مصالح البلاد وتوجيه مصايرها إلا صفوة أبنائها ، ويظل الأوشاب في أسفل

* * *

أما في مصر فاننا لطول لهفتنا إلى الديمقراطية والعلم — بعد أن عصف بنا الاستبداد والجهل أجيالاً — اندفعنا إلى مبدأ التعليم العام اندفاعاً ، وأخذنا بمبدأ الديمقراطية وحده ، وهو مبدأ كما تقدم غير طبيعي مالم يُماشِه جنباً لجنب مبدأ الانتخاب ، ومالم يُراعَ معه قيام الفوارق بين الطبقات ، فأدى هذا الاندفاع إلى هبوط مستوى التعليم هبوطاً ذريعاً : فكثر عدد المتعلمين ولكن قَلَّتْ قيمة الواحد منهم بما يحمله من علم وخلق ، والجانب الخلق هو الذي يعنينا هنا أكثر من غيره ، وقصارى

ما يقال فى أخلاق أبناء مدارسنا وخريجيها أن النفس تمتلئ أسى ويأساً من مستقبل قضية الوطن العزيزة حين تذكر أن هؤلاء هم ذخر البلاد لغدها ، وما جنى على أخلاق متعلمينا هذه الجناية إلا حشدُ التلاميذ فى المدارس من جميع الطبقات بلا تمييز

فى كل أمة فى العالم طبقة سفلى ، فلا ضير علينا فى الاعتراف بوجود هذه الطبقة بيننا ، بل يجب علينا ونحن نلتمس موضع الداء ونحاول إصلاح عيوب التربية أن نذكر أن الطبقة الدنيا فى بلادنا كبيرة العدد كبراً يفوق ما بالبلاد الراقية ، وأن أخلاق تلك الطبقة فى منتهى الضعة ، لأنها ما تزال تحمل بين أطوائها آثار عصور الاستبداد والجهل التى أوهنت الأخلاق وبثّت الكذب والنفاق والغش والخيانة والخشونة والوقاحة ، وما يزال أبناء الطبقة الوضيعة عندنا متّسمين بهذه الصفات ، وهم لا يرون بها بأساً ولا يعدّونها إلا إمارات مهارة وحنكة ووسائل احتيال للعيش وانتهاز للفرص

ومن سوء حظ التعليم فى مصر أن أبناء تلك الطبقة أقبلوا على التعليم فى السنين الأخيرة إقبالاً شديداً ، لا لقدرهم العلم قدره ومعرفتهم بفضل الخلق الكريم العالى ، بل طمعاً من الآباء فى أن يروا أبناءهم يرفلون فى أزياء الأفندية والبكوات ، ويترشحون لمالى المناصب والمرتبات ، فوجد أبناء السائقين والأسكافين والخدم والبوابين ومن إليهم أبواب المدارس مفتحة لهم على مصاريعها فجلسوا على أرائكها بجانب أبناء الأسر الطيبة الذين نُشّئوا فى بيوتهم على حسن الذوق ولُطف الخطاب وطهارة الطوية ، فبثوا فى جو المدرسة خشونة طباعهم ، وجلافة خطابهم ، وسفالة أفكارهم ، وضَعَةَ نفوسهم ، ولم تكن إلا سنون حتى تسمم جو كل مدارسنا ، وصارت تطبع كلّ من أمّها من التلاميذ — سوقتهم وراقيهم — على غرار واحد لا يتصف بصفة حميدة واحدة

والذى أراه أنّ مدارسنا لن تقال من كبوتها ، وأخلاق ناشئتنا لن ترفع من حطتها ، حتى يُصدّ هذا الذى يحق أن نسميه « غارة السوقة على المدارس » ، ويفصل بين أبناء السوقة وأبناء الأسرات الطيبة فى معاهد العلم ، وما دام هذا المزج الذى لا تمييز فيه فستظل أخلاق سوقتنا تطغى على أخلاق عليتنا ونحن نمكّن لهذا الطغيان بأيدينا فى مدارسنا

فى الأمة سوقة وفيها أسرات طيبة ، ونحن الذين نريد الرقى ببلادنا نبنى الخير للجميع بلا نزاع ، ولكن هذا المزج بين الفريقين بدعوى الديمقراطية لا يؤدى إلى غرضنا المنشود ، هو يهبط بأخلاق العلية ولا يرفع السفلة ، كالذى يمزج قليلاً من الماء النقى بكثير من الماء العكر لن يحصل إلا على ماء عكر ، والأجدر بنا ألا نتعجل الأمر فنحاول ترقية الأمة جميعاً وتعليمها وتهذيبها دفعة واحدة

إن الأجدر بنا أن نصرف عنايتنا أول الأمر إلى أبناء الطبقة المهذبة فنمدهم بالتعليم الذى ينشرونه وهم بمنأى عن مخالطة السوقة والتطبع بطباعهم ، فهؤلاء صفوة أبناء الأمة ، ومتى خلَص لنا تعليمهم وتهذيبهم فقد أهدينا إلى البلاد طبقة من أبنائها الأكفاء ذوى الخلق العظيم القادرين على تدبير أمورها وقيادة نواحى النشاط العام فى حياتها ، ولنا أن نلتفت بعد ذلك — أو مع ذلك — إلى أبناء السوقة ، فنفسح لهم فى مجال التعليم والتربية بما يؤدى إلى ترقية أخلاقهم ورفع مستواهم ، ولكن على أن يظلوا بنجوة لا يبثون السموم فى بيئة أرفع من بيئتهم ، وإنّ رفع مستواهم لأمر يحتاج إلى أجيال ، كما أنهم إنما هبطوا الى دركهم ذاك فى أجيال ، فجدير بنا أن ننبذ التسرع جانباً

* * *

من ثم نرى ضرورة إنشاء مدارس منفصلة لأبناء الطبقة المهذبة والأسرات الطيبة كما أشرت اليه فى كلمة سابقة ، يُقبل بها التلاميذ على أساس الانتخاب الخلقى والعقلى لا على أساس الديمقراطية العمياء ، فما لا نزاع فيه أن بالبلاد أسرات طيبة ينشأ أبناؤها فى بيوتهم نشأة طيبة ، فلننتخب أبناء هذه الطبقات — بخير الطرق المستطاعة — ولنُفرد لهم مدارس تمدهم بالثقافة ولا تفسد أخلاقهم بمخالطة الدون

ولا شك أن اليُسر المالىّ من دواعى رقى الأسرة ورقى المجتمع كله . فالأسرة التى تشعر باليسر وترى امتيازها المالى على غيرها تسعى ليكون لها امتياز خلق أيضاً ، فتنزع إلى الحياة المنظمة النظيفة وتتسامى عن الشرور وعن السفساف ، وتسود فيها رقة الحاشية وسلامة الذوق ، والأخلاق الطيبة تبدأ تطبعاً وتستحيل

طبعاً وتبتدىء بالمظهر ثم تأخذ بالجوهر . أما الأسرة السوقية المدقعة فيورثها كفاحها فى طلب القوت وضيع الرذائل وقذرَ العادات ، ومن ثم يمكن أن يُتخذ اليسر المالى مقياساً لرقى أسرة الطالب وسموها عن أدران السوقية كما تتخذ مهنة والده مقياساً لذلك أيضاً ، ويجب بعد أن يُقبل الطالب فى المدرسة أن تستمر الرقابة المدرسية الصارمة ، فمن ثبت عدم استحقاقه للبقاء فى بيئتها الراقية فُصل على الفور ليظل جو المدرسة دائماً نقياً يسمو بأخلاق أبنائها

كذلك يجب أن تسمو المدارس بالعقول : بأن يُرفع مستوى الامتحانات التى يتوقف عليها تقدم الطالب فى مراحل العلم — أياً كان نوعها وكيفما أدخلت على أنظمتها الاصلاحات — حتى لا يُسمح باجتياز مراحل التعليم المختلفة إلا لمن هيأتهم الطبيعة بالمواهب الصحيحة ، فيُسمح للجميع بطَرْق مرحلة التعليم الأولى ، ولكن لا ينال الاجازات العلمية إلا من هم جديرون بها

***

هكذا يُطبَّق مبدأ الانتخاب فى التربية بناحيتيها الخلقية والعقلية ؛ وباتباع هذا المبدأ ترقى أخلاق المتعلمين ويرتفع مستوى الحاصلين منهم على الاجازات العلمية ويقل عددهم فلا يزيد على حاجة البلاد ولا يكونون طبقة عاطلة ، ومن تخلفت به مواهبه منهم عن إدراك غايات العلم الصحيح يُعرج على ما يناسبه من مهن وأعمال

فمبدأ الانتخاب ، مبدأ الاعتراف بالتفاوت بين الأفراد والطبقات ، مبدأ اختيار الأصلح ، الذى هو المبدأ الطبيعى ، هو المبدأ الذى به تصلح نظم التربية عندنا وتبرأ من عللها الكثيرة ؛ أما مبدأ الديمقراطية المطلقة ، مبدأ فرض المساواة التامة بين الجميع فى كل شىء ، مبدأ إفساح المجال لكل من هب ودب ، فهو مبعث آفات التعليم ، وهو الذى أدى إلى حشد التلاميذ فى المدارس ذلك الحشد الذى عزا إليه تقرير معالى وزير المعارف معظم مساوىء التعليم فى مدارسنا

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

إبليس يتوب . . . !

للأستاذ محمد سعيد العريان

« ليس أسمج من الرذيلة تكون وحدها فى الأرض ، إلا الفضيلة تكون وحدها . . . ! »

الرافعى

اطَّلع إبليسُ ذات مساء على الأرض ؛ يستروح من نسمات الليل والدنيا نائمة — رَوْحَ الفردوس الذى طردته الكبرياءُ من رحمته . وانبثَّ زبانيتُه ينفثون الشرَّ عن أمره فى أوكار الظلام ؛ ففى كل منعطَفٍ شيطانٌ صغيرٌ يتربَّص ، وبين كل اثنين ثالثٌ لا يريانه . . .

وسمع إبليسُ فى هدأة الليل عابداً يتهجَّد ، مايبدأ ولا ينتهى من سجدةٍ إلا لَعن الشيطان . . . !

وأحسَّ إبليسُ لعنات الشيخ العابد تنصبُّ عليه كما ينهال التراب على نار تتلهَّب ، أو ينصبُّ الماءُ على جمرة تؤجّ

وصرَّت أسنانُ الشيطان من الغيظ ، وانقدح من حَجاجيْه شرارٌ كالحب ، أن عجزَ وعجزتْ زبانيتُه معه عن فتنة مثل هذا الشيخ الزاهد وإرادته على أن يتعلَّق بحظه من الدنيا وشهوات النفس ، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة !

أفكان يعصم الشيطانَ من اللعنات أن يُسلِّط على الناس جميعاً شهواتهم ويُغرى بهم أنفسَهم ؟ فكيف وإنَّ عبادَه من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه باللعنة على مقدار ما يُيسر لهم شهواتِهم ويضاعف لهم من مَسرّاتها ؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعَهم إلى طاعته . . . ؟

وهبَّت نسمةُ السَّحر تُعطر الدنيا بأنفاس الجنة ، فاسترَوح منها إبليسُ رَوحَ الماضى يُذكره أيامه كلها منذ بدء الخليقة ويلقى التاريخَ بين يديه . وتنفسَّته الذكرى وعاد الزمانُ القهقرى أمام عينيه ؛ فاذا هو مَلكٌ بين الملائك يسبِّحون بحمد ربِّهم حافِّين من حول العرش ؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربّه أبياً مستكبراً أن يسجد لبشرٍ من طين ؛ وإذا هو من بعدُ مطرودٌ

من رحمة الله ، مذموم مدحور يلعنه الفضاء ويسُبُّه الأبد ؛ ثم ينفث نفثته فى صدر حوّاء فيزلّها وزوجها عن الجنة فيُخرجهما مما كانا فيه ، ويتعقّب أبناءهما من بعدهما على الأرض يصنع منهم حطبَ جهنم ، فما بشرٌ من الناس إلا شيطانُه يسعى بين يديه ...

ثم هو فى موقفه ذاك تتناثر من حوله لعناتُ الناس سواءٌ منهم طائعُه وعاصيه . وتصكّ أذنيه من مكانٍ سحيق زفراتُ عباده فى نار جهنم تشكوى جباهُهم وجنوبهم بما أغواهم الشيطانُ وأضلهم سواءَ السبيل !

ولأوّل مرة استشعر إبليسُ لذعَ الندم فدمعت عيناه ...!

يالها من سخرية ... إبليس يتوب ... ! لقد كفاه ما اقترف منذ هبط من السماء انتقاماً لكبريائه التى زعمها ديستْ يوم أُمِرَ أن يسجد لصلصالٍ من حمأٍ مسنون !

أكانت توبةً نصوحا ، أم مبالغةً فى الانتقام ، أم هو يشتهى أن يعيش بشراً بين البشر عُمْراً من عمره ، ليذوق بعض لذّات البشرية ، ويرى بعينى حسه كيف يفتتن بها الناسُ جميعاً منذ كانوا فتسرع بهم شهواتُهم إلى طاعة الشيطان ... ؟

***

وطلع إبليس على الأرض فتًى وسيماً يمشى على قدمين مشى الناس . وشعر لأوّل ما لبسته البشريةُ أنه جائع ، فماج على نديٍّ ساهرٍ له به عهد ، لأنه هو الذى أنشأه وأقامه حجراً على حجر ، وطالما قضى فيه الليالىَ ذواتِ العدد من حيث لا يراه الناس ؛ ينفث الشر ، ويبذر بذور الخطيئة ، ويفتنّ فى وسائل الاغواء ...

كانت مصابيح النّديّ ترمى أضواءها إلى بعيد ، وتمُدُّ من أشعّتها شركاً يصيد الناس ويأخذ عليهم طريقهم ؛ وكان كلُّ ما ينبعث منه يُشعر أن هناك حركةً وعملاً يغريان من يلتمس إرضاء شهواته ...

ولكن ... ولكن هاهو ذا إبليس يصعد الدَّرجَ فى أناةٍ ورفق ، ويدفع الباب فى هدوءٍ وخفة ، ويخطو إلى البهو فى سكون وحذر ، فيرى ، ولكنه يرى أجساداً لا تكاد تتحرك ، ويسمع ، ولكنه لا يسمع إلا مثل أنفاس النائمين ؛ ويشهد ، ولكنه لا يشهد إلا عيوناً محدّقة فى الفضاء تتأمل . لم يكونوا سكارى ولا مُغيَّبين ، ولكن فكرةً واحدة كانت تسيطر عليهم جميعاً ، فكرةً بين السخط والرضى ، وبين الندم والاستغفار !

وجلس الشيطان إلى مائدة وحده وطلب طعاماً ، وراح يدير عينيه فيما حوله ومن حوله ، ويتسمع نجوى الضمائر الخفية تهمس فى أعماق أصحابها

ورأى مائدة خضراء مبسوطة ، قد تناثر عليها هنا وهاهنا نقدٌ وورق ، ورأى كؤوساً فارغة وممتلئة ، ورجالاً ونساء قد تحلّقوا حول المائدة ، ذراعاً إلى ذراع ، وامرأةً بين كل رجلين ... ولكن يداً واحدة لا تمتدّ إلى شىء ، وفماً واحداً لا ينبس بكلمة ...

وأبصر رجلاً يهتز فى موضعه هِزّةً خفيةً وهو يتحدّث إلى نفسه : كيف يصنع وقد فقد كل ما كان معه من نقد ، إنه ليرى ماله أمامه على المائدة ولكنه ليس من حقه ، لأن حظه فى اللعب قضى به لغيره ، هو قضاءٌ غير مشروع ولكنه حكم العرف فما عليه إلا الطاعة ! وقالت له نفسه : ما أنت والقمار ؟ شدَّ ما نهيتُك فلم تنته ! الآن فذُق ألم الحرمان مما تملك ، فلعلك من بعد ألا تستمعَ إلى إغواء الشيطان ...

واختلج إبليس حين ذكر اسمُه اختلاجةً كادت تنمّ عليه ؛ وهمّ أن ينهض ، لولا أن أقبل النادلُ [1] عليه بالطعام

وشُغِل إبليس لحظة بالأكل ، يزدرد اللقمة بعد اللقمة يكاد لا يحرّك بها فكيه ؛ وعرف لأوّل ماذاق الطعام — لماذا كانت شهوة البطن أوّلَ همٍّ الانسان ... !

وعاد ينظر إلى وجوه الناس وضمائرهم ، فما راعه إلا هذا المقامر الرابح محدقاً فى الفضاء يتفكر ، وإن وجهه لتتعاقب عليه شتى ألوان الندم والخزى والحياء ... ثم لم يلبث أن نهض يجمع المال على المائدة فيفرّقه فى سُمّاره وهو يقول : معذرة ياصحابتى ، فانما هو مالكم ليس لى حق منه فى شىء ، وما لعبت لأسلبكم ما تملكون ، إنما أردتُ السلوة وإزجاء الفراغ . وعضّ على شفته واحمر وجهه ، إذ كان يعلم أنه يكذب فى اعتذاره ؛ فما كان ليقامر إلا مؤمِّلا أن يربح ، وما كان ليربح مرة إلا وهو يعلم أنه يأخذ ما لا يملك ؛ وقد ربح الليلة ، ولكنه حين ضمّ يديه على

---

(١) النادل واحد الندل (بضمتين) ، وهم خدم الدعوة والمطعم والقهوة

المال أحسّ كأنه يقبض على جمر ؛ ورفت به سانحةٌ من الخير ، فتعفف أن يأكل مال الناس تخرج عنه لأهله . . . !

ونظر الرجل إلى يمين ، فاذا صاحبته مطرقة قد تغرغرت عيناها ، فمال عليها وهو يهمس :

« أيكون قد أغضبك ما فعلت يا سيدتى ؟ »

قالت المرأة : « عفواً ، ليس لى شأن بذاك ، ولكن أمراً يقتضينى أن أعود مسرعة إلى الدار . . . ! »

وهبت واقفة ، فقال الرجل : « خير . . . . ! أتأذنين لى أن أصحبك ؟ »

قالت : « شكرا . . . ! »

وسارت فى طريقها فما الحّ الرجل ولا تعوقت المرأة ، ومالت إلى غرفة فى الندىّ تأخذ زينتها فى المرآة فأدركتها صديقة ، ونظرت كل منهما فى وجه صاحبتها فأطالت النظر ثم أطرقتا . .

منذ بعيد تقارف هاتان المرأتان الاثم فى غير حذر ولاتذمم ؛ أما إحداها فضحية شاب غوى أغراها حتى نال منها ثم اختفى من وجهها وخلّف بين أحشائها بضعةً منه ، ففرّت بجريمتها من قانون الجماعة إلى حيث تشفى داء قلبها بالانتقام من الرجال

وأما الأخرى فزوج كالأيِّم ، أو هى أيم وإن تك ذات بعل ؛ فما شعرت يوماً أن لها حقاً على رجلها ، وإنه لدائب التجوال بين البلاد ، لاتستقر به الدار فى حضن زوجته أياماً حتى تعرض له الأمانى تغريه أن يضرب فى الأرض يطلب المجد بالثمن الغالى . . . بشرف زوجته . . . !

لم تحس المرأتان قبل الليلة معنىً من معانى الندم ؛ فمالها الليلة مطرقتين لا تنبسان ؟

أرأيت إلى المجرم إذ يُفجَأ وهو يقارف جريمةً منكرة ، فليس يملك أن ينكر ولا أن يعتذر ؟

وعاد نظر المرأتين فالتقيا فاذا هما تتعانقان وقد اجهشتا باكيتين ، وأطفأت دموع الاستغفار وقد النار ولذع الندم ، فكأنما حلت فى جسد كلٍّ منهما روحٌ جديدة قد خرجت من الجنة لساعتها لم تتعلق إثماً ولم تجترح معصية

وتلفت إبليس فاذا الندىّ مقفر خال ليس فيه إلا النُّدُل يسعون بين الموائد الخالية ، يرفعون الأوراق والأقداح ويصففون الكراسى والمناضد

وتنفّس الصبح فأبدل إبليس ثياباً بثياب ، وانطلق فى تُبّانه وبُرْنُسه إلى سِيف البحر(١) ، يستمتع به مايستمتع البشر ، ويملأ عينيه وقلبه من مفاتن دنيا الناس . لقد كان له فى البحر معهدٌ يرتاده زبانيتُه يعلمون الناس السحر وينصبون شَرَكَ الفتنة ؛ وهوذا البحر ، فأين فتنته وسحره ، وأين مباهجه التى كانت ؛ أين الأجسام البضة ، والأذرع الغضة ، والسيقان اللفاء ، والصدور النواهد ؛ وأين العيون التى ترمى فتصمى ، وأين لآلئ البحر تغوص وتطفو ، وأين الزَّبَدُ الأبيض يلاطم الزبد الأبيض

لقد خلا البحر من عرائسه ، إلا عجوزاً مقرورة مستلقية على الشاطئ ، ما يبدو منها إلا عينان كصَدَفَتين ملقاتين فى كومة رمل !

وهذه فتاة تمشى على استحياء مستندة إلى ذراع أخيها ، فما تعرت من بُرْنُسها إلا ليسترها الماء . وهذا رأس رجل يبدو سابحاً من بعيد ، ما يكاد يرى الفتاة حتى يتنكّب عن الطريق لئلا تتأذّى منه الحسناءُ السَّبوح

وأحسّ إبليس أوّلَ آلام البشرية فى الوحدة والفراغ والضجر ، فمضى على وجهه ممتلىءَ النفس فارغ الفؤاد . لقد ودّع عالَمه الموحش تحت الرَّغام ليظفر بالأنس فى عالم البشريّة ، فما ظفر إلا بالوحشة وألم الشعور بالحرمان ؛ وخلع عنه شيطانيّته تائباً ليهب للناس الإستقرارَ والسلام ، فما لقى هو فى بشريته إلا الاضطراب والألم

* * *

واطمأنت الحياةُ بالناس ، فاجتمعوا على الرضى والطاعة فى حال شرٍّ منها السخطُ والعصيان ؛ إذ لم يكن ثمّتَ عدوانٌ يدعو إلى المقاومة ، أو تَرَبُّصٌ يُنَبِّه إلى الحذر ، أو كيدٌ يستتبع الحرصَ واليقظة ؛ وعاد كل فردٍ أمةً وحده ، يعيش فى رضى وقناعة على أكمل ما يكون الانسان صلاحاً وحبّاً فى الخير ، ولكن الجماعة لم تجد ما يشدّ وحدتها ويربطها آصِرةً إلى آصرة . ودبّ النعاسُ إلى أجفان الحياة : فمات الطموح

(١) التبان : سراويل البحر . والسيف (بكسر أوله) : البلاج

لأنه بابٌ من التكبر ؛ وخمد النشاط ، لأنه جهاد في غير عَدُوّ ؛ واستنام الناس إلى القدر ، لأن التمني ضربٌ من الأثرة ؛ وعاش نصف الناس عيالاً على نصف الناس ؛ فليس ثمت عملٌ للشرطة والجيش ورجال الحكم ؛ وأنَّى لهم أن يعملوا مادام لا سرقة ولا قتال ولا عدوان ؟

وكسدت سوق القَفّال والزّرّاد والصَّيْقَل والرّمّاح ؛ وما حاجة الناس إلى الأقفال والدروع والسيوف والرماح ؟

وقال فتىً لصاحبه : تعالَ نلتمس نزهةً في غير ساحة (المولد) ؛ فما لنا ولهذه المهرجانات التي لا تجتمع إلا على شرٍّ ولا تحشد الناس إلا لمعصية ؛ حسبي أن أعمر قلبي بذكر الله وأتخذ أولياءه قدوتي وإمامي . . .

وأمّن صاحبه على قوله ؛ ولكن البدّال ، والبقّال ، والبزّاز ، وبائع الحمص ، وصانع الحلوى ، ومدير الملهى -- لم يعرفوا لماذا هجر الناسُ المولد ؛ فمضى الموسمُ ما باعوا ولا اشتروا ولا تعوّضوا ، وقوّض كل منهم خيمته ومضى غير مأجوز على جهاده !

وقال بعضهم لبعض : « أترون الناس قد نسوا أولياءهم فتمرّدوا على ما اعتادو ؟ »

فأجاب شيخ كبير : « ذلك من عمل الشيطان . . . ! »

وأراق الخمّارُ أحمرَه وأصفره وهو يقول : « ليت خمري كانت خلاً . . . . ! »

وجلس قاضيان يداولان بينهما الرأي :

« أيهما خير : أن تعيش الفضيلةُ وحدها على الأرض ، أو أن تنبت بين أشواك الرذيلة والمنكر والشر ، فيكون للانسانية منها أفراح ثلاثة : فرَحُ النفس المؤمنة بها ، وفرَحها بالصبر على المجاهدة لها ، وفرحها بالظفر بعد مشقّة الجهاد . . . ؟ »

ونظر الشيخ الزاهد في صحيفة أعماله ، فاذا هي بيضاء أو كالبيضاء ؛ فليس يُضاعِف الأجرَ إلا المقاومة . ولو أن عابداً قضى الدهر كله راكعاً ساجداً ، ما عدل أجْرُ عبادته كلّها ثوابَ ساعةٍ لشابٍّ تتجاذبه شهواتُ الدنيا ، كلما همّت نفسُه إلى معصية ردّه عنها الايمانُ والتُّقى ، فهو أبداً في مجاهدةٍ لا يهدأ ، وهو أبداً مأجورٌ أجراً لا ينتهي !

وإنما يقظة الحياة في الجهاد والمقاومة وتوقُّع ما يأتي به الغدُ على شتى ألوانه ؛ فاذا عُدِم الجهاد ، وفُقِدت دواعي المقاومة ، وعاش الانسان لساعته التي هو فيها -- أعمى أو كالأعمى لا يُبصر ما أمام -- فَقدَت الحياةُ معناها الأسمى ، وعاش الناس في هدى أشبهَ بالضلال ، وفي فضيلةٍ شرٍّ من الاثم والفسوق والعصيان !

ليتك تدري أيها الزاري على القدر ...! هل تستوقد النار إلا بالحطب ؟ فمِن أين لك مادمتَ تشفق على الغصن اليابس والهشيم الجافّ !

وهل يعلم الفُسّاق والعُصاةُ من بني آدم ، أنهم قبل أن يكونوا في أخراهم حطبَ جهنم -- كانوا في دنياهم سُلَّم البشرية إلى مثلها الأعلى . . . ؟

وتثاءب الشيطان وتمطى إذ أدركه النعاسُ الذي ضرب على عيون البشر ؛ وإذا هو وقد خضع لناموس البشرية قد ناله ما ينال الناسَ من الضيق والملل وتقلُّب الرأي ؛ إذا تقلقلت دنياه طلب الاستقرار ، فاذا استقرّ عاد ينشد الحركة ويتبرّم بالسكون . . . !

وقلّب وجهَه في السماء كاسفاً محزوناً ، ثم أسند رأسَه إلى راحته وجلس يتفكّر . . .

أيّ خير كان يقدم هو للجماعة البشرية على حين كان لا ينبغي إلا الكيدَ والانتقام ؟ هذه الدنيا تنام بعد يقظة ، وتسكن بعد حركة ، وتسترخي بعد نشاط ، لأنه هو قد بطل سحره ، وإذ لم يعد في الدنيا شرٌّ ، مات في الجماعة روحُ الانبعاث إلى الخير . . !

أيها الخالق العظيم ، ما أعجب تدبيرك وأدقّ حكمتك ! خلقت الشر والخير يصطرعان في هذا العالم لتوجدَ منهما الخيرَ الأعظم ، وأنا -- أنا الشيطان المشئوم -- حسبتني يوماً أكبر مما أنا ، حين ذهبتُ أهدّم ما تبني ، وأعصى ما تأمر ، وأدعو إلى ما تنهى ، فلما آذنتَ أن تذل كبريائي ، أريتني نفسي إلى جانب عظمتك ، فاذا أنا ، أنا الذي زين له الغرور يوماً أنه أكبر من أمرك ، إذا أنا أعصى عصياني في طاعتك ، وأفسد إفسادي لاصلاح عبادك على قدر منك وتدبير حكيم . . . . !

وشعر الشيطان بالخيبة تلاحقه في كل مكان ، فلا هو هناك -- في عالمه الشيطاني -- كان موفقاً فيما يحاول الانتقام من بني آدم ، ولا هو هنا . . .

وعاودته نزغة شيطانية لم يلبث أن قمعها فى صدره وانطلق فى سبيله

* * *

وانتهى إلى البستان المعشوشب المخضل وقد نال منه الاعياء فارتمى على العشب الرطب يستريح فى ظل وارفة لفاء ، وطلع له من بين ملتفّ الحدائق حسناءُ وضاءة ، تمشى كما يهتز الغصن وترنو كما يبتسم الزهر

وأحس إبليس مرة أخرى أن قانون البشرية يعمل فى دمه وأعصابه ، وأطال النظر إلى الحسناء الفاتنة ثم أطبق عينيه وهو يتنهد ، كأنما قد توهم أنه قد احتوتها أجفانه ، وشعر بمس الحب فى قلبه فأشرق وجهه بابتسامة هادئة فيها لمحة من السرور وغير قليل من الألم

وجلست الحسناء جلستها على العشب غير بعيد ، وضمت إليها أطراف ثوبها يستر شيئاً ويكشف عن شيء ، مستأمنة مطمئنة

وخطا إبليس خطوتين إلى حيث جلست يسألها شيئاً ، فاستحيت حواء الصغيرة وأرخت فضل ثوبها على الوجه الفاتن ، ووقف إبليس ينشد قصيدة غزل طويلة ، وعتها حواء كلمة كلمة ومعنى معنى ، ولكنها لم تنبس ، ومدّ إليها يداً يستنهضها فما نهضتْ وازورّت عنه مُعرِضة ، وسكت ولكن عينيه ظلتا تتحدّثان حديثهما

واربدّ وجه المرأة من غضب ، فما رأى إبليس غضبتها إلا فناً جديداً من فنون جمالها ، فقالت وقد ضاقتْ به : « إليكَ عني يافتى وخَلِّ سبيلي . . . . ! »

وضاق صدر الشيطان بهذه الانسانة العنيدة ، وثقل عليه أن يعجز عن نيلها وهو هو !

كم فتاةٍ وامرأةٍ قبل صاحبته تلك كانت من عباده وأتباعه ما تأبّتْ واحدةٌ منهن على ما أراد لها ؛ على أنه اليوم يريدها لنفسه هو ، فليس به اليوم حاجةٌ لأن يسعى لغيره وقد خلع شيطانيّتَه !

ماذا . . . ! أيعيش هذه الآلاف من سنيه الماضية يتحكم فى البشرية كلِّها ، وعلى إرادته ، ويسعى بين الناس ، ويصل بين الأحباب ، ويقدِّم الثمرة لكل من يشتهيها ؛ حتى إذا اشتهى هو أن يذوق تلك الثمرةَ أعجزه أن ينالها . . . ؟

وللمرة الثانية منذ خلق شعر أن كبرياءه جريح . . . !

لقد أبى أن يسجد لأبى البشرية كلها وفسق عن أمر ربه ، أفتفسق عن إرادته امرأة ؟ وما هو إن لم ينَلْها ؟ وما هى حتى تتأبّى عليه كلّ هذا الاباء ؟

وعاود احتيالَه يستجدى الحسناءَ بعضَ الرضى ، فولّتْ عنه معرضة مستكبرة ، ومضت تدوس بقدميها الصغيرتين قلبَ إبليس . . . !

وعاد إلى نفسه يستلهمها الحيلة فما أمدّته بشيء ، وبدا إبليس فى بشريته إنساناً ضعيفاً قليلَ الحول ، لا قدرة له على التصرف ولا طاقة له بالاحتمال . . .

ووجدت له شغلاً من فراغ . . . وعدا خلف المرأة يحاول أن يدركها ما يبالى نظرات الناس ؛ فاذا زوجها يلقاها على الطريق فيصحبها إلى الدار يداً فى يد وجنباً إلى جنب !

وأحسّ إبليس فوق ألم الحبّ الذى يجد — ألماً جديداً من آلام البشرية ، وقَذَفَ مَنظرُ الزوجين المتحابّين فى قلبه الحسد . . . !

وآدَه العجز والشعورُ بالحرمان ، فعاودته شيطانيّتُه ثائرةً محنقة . على أنه وقد ذاق بعض لذّاتِ البشرية فى آلامها لم يكن يريد أن يرتدّ إلى عالَمه ، إنما كان حسبه أن يستمدّ الحيلةَ من طبيعته الأولى بمن يحب وهو باق فى بشريته !

ولكنه — وا أسفاه ! — لم يستطع أن يكون شيطاناً ورجلاً فى وقت معاً ؛ وحين ألهمته طبيعتُه الأزلية بالرأى فقذف بالفكرة المحرّمة فى قلب المرأة — كان خلقاً آخر ليس من البشرية ولا حظّ له من المرأة . ونَظرَت الحسناءُ إلى وراء تفتقد عاشقَها المدنَف فما رأته ، وما كان لها أن تراه وقد عاد شيطاناً لا يخضع لنواميس هذا العالم ؛ ورآها هو تنظر متلهِّفةً مشتاقة ، فما نالته نظرتُها ولا مسّت قلبه ؛ لأن إحساس البشرية ونوازعها كانت قد فارقته حين لبس جناحَىْ شيطان . . . !

وكُتب فى تاريخ الأرض ، أن إبليس قد تاب مرّةً ، ولكن ردّته الى شيطانيته امرأة . . . . ! ؟

(طنطا) محمد سعيد العريان

٦ – شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وروى مخارق أن أبا العتاهية جاءه فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوماً تهبه ، لى فمتى تنشط ؟ فقلت متى شئت ! فقال : يكون ذلك فى غد ؛ فجئته فأدخلنى بيتاً له نظيفاً ، ودعا بطعام وفاكهة فأكلنا ، ودعا بألوان من الأنبذة فقال اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ، ثم صب قدحاً وقال : غنني فى قولى :

أحمدٌ قال لى ولم يدرِ ما بى   أتحب الغداة عُتبةَ حقاً

فغنيته ، فشرب قدحاً وهو يبكى أحر بكاء ، ثم قال : غنني فى قولى :

ليس لمن ليست له حيلةٌ   موجودةٌ خيرٌ من الصّبر

فغنيته وهو يبكى وينشج ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنني فديتك فى قولى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى   تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فغنيته إياه ؛ وما زال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره ، فأغنيه ويشرب ويبكى ، حتى صارت العتمة ، فقال أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ، فجلست ، فأمر ابنه وغلامه فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهى ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاء من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبى وفرحى من الناس كلهم ، سلام الفراق الذى لا لقاء بعده ؛ وجعل يبكى ، فانصرفت وما لقيته زماناً

وروى أبو سلمة الغنوى أنه قال لأبى العتاهية : ما الذى صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد ؟ فقال : إذن والله أخبرك ، إنى لما قلت :

الله بينى وبين مولاتى   أهدتْ لى الصد والملالاتِ

منحتها مهجتى وخالصتى   فكان هجرانها مكافاتى

هيّمنى حبها وصيّرنى   أحدوثة فى جميع جاراتى

رأيت فى المنام فى تلك الليلة كأن آتياً أتانى فقال : ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى ، فانتبهت مذعوراً ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل

فإذا كانت هذه الروايات كلها فى حادثة واحدة فهى متضاربة متدافعة ينقض بعضها بعضاً ؛ وإذا كان الرشيد هو الذى كان يأخذ على أبى نواس اندفاعه فى اللهو ويحاسبه على ذلك فى شعره ، ويحبسه عليه مرة بعد مرة ويزج به فى سجنه ، فكيف يتفق هذا مع ذلك المسلك الذى كان يسلكه مع أبى العتاهية ، وهو لم يكن أرق غزلاً من أبى نواس ولا غيره من جمهور الشعراء الذين كانوا يلتفون بالرشيد ، وكان لهم من رقيق الغزل ما يغنيه عن غزل أبى العتاهيـة ؟ وليس هذا وذاك كل ما يعنينا من هذه الروايات ، بل يعنينا منها أيضاً أنها لا تصل بنا إلى غور نفس أبى العتاهية وصلتها بتلك النزعة الصوفية التى صارت اليها ، وقد كان فى ظاهر أمره أبعد الناس منها ، فلا تبين لنا تلك الروايات إلا أنها حالة طرأت عليه فى بغداد ، ولا تتصل إلى سابق أمره بصلة ، وتردها الرواية الأخيرة إلى تلك الرؤيا المناميـة السابقة ، وهى إذا صحت لا تكفى وحدها فى الأخذ به الى كل ما أخذ به من ذلك الغلو فى أمره ؛ فإذا أمكننا أن نصل إلى هذه النواحى الغامضة من أمر أبى العتاهية أمكننا أن نفهم من أمره مالم يفهمه الناس منه الى الآن . وسنجلو من أمر ذلك ما نحتاج اليه هنا ، ونترك ما بقى من ذلك إلى موضعه من هذه الدراسـة لأبى العتاهية ، ليكون لنا منها دراسة منظمة لا يسبق شيء منها على موضعه ولا يتأخر عنه

وإنه ليهمنا فى الأول أن ننفى ما يفيده ظاهر تلك الروايات من أن تلك النزعة الصوفية فى أبى العتاهية كانت نزعة طارئة عليه فى بغداد ، والحقيقة أنها كانت نزعة قديمة عنده ، وأن أمرها يرجع إلى مبدأ أمره بالكوفة ، وأنه كان يخفى ذلك فى نفسه ليظهر به فى الفرصة التى يكون له فيها أثره فى الناس جميعاً ، لا فى نفسه وحده . ودليلنا فى هذا هذه الرواية التى تنطق بأن القول فى الزهد كان أول ما أخذ به فى شعره

روى محمد بن عبد الجبار الفزارى أن أبا العتاهية اجتاز فى أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به فى الكوفة ويبيع

منه ، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه ، فسلم ووضع القفص عن ظهره ، ثم قال : يا فتيان ! أراكم تذاكرون الشعر ، فأقول شيئاً منه فتجيزونه ، فان فعلتم فلكم عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم ، فهزئوا به وسخروا منه ، وقالوا نعم ، قال : لابد أن يشترى بأحد القمرين رُطبٌ يؤكل ، فانه قمرٌ حاصل ، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ، ففعلوا ، فقال أجيزوا :

« ساكني الأجداث أنتم »

وجعل بينه وبينهم وقتاً فى ذلك الموضع إذا بلغته الشمس ، ولما لم يجيزوا البيت غرموا الخطَر ، وجعل يهزأ بهم وتممه :

ساكني الأجداث أنتم … مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعرى ما صنعتم … أربحتم أم خسرتم

وهى قصيدة طويلة فى شعره

فهذه نزعة أبى العتاهية فى الزهد والتصوف ظاهرة فيه تمام الظهور من أول أمره ، ولا شك أنه رأى بعد هذا أن يتصل بشعراء الكوفة ليظهر بينهم أمره فى الشعر ، وأنه فى سبيل هذه الغاية أخفى هذه النزعة فى نفسه ، وأخذ يسلك فى اللهو والشعر مسلك هؤلاء الشعراء ، ثم تركهم إلى بغداد عاصمة المملكة العباسية لينال من ظهور الشأن بالاتصال ببني العباس ما لا يناله لو بقى بالكوفة ، فنال من ذلك بغيته وأكثر من بغيته ، وأخذت نفسه تنازعه ميلها إلى الزهد ، وإلى الظهور بمظهره الحقيقى الذى يريد أن يمكر فيه صفو هؤلاء الملوك ، ويطلع الرعية على إسرافهم فى الحياة ، وغفلتهم عن الآخرة ، وانصرافهم عن مناهج الخلفاء الراشدين ، وسبل الملوك الصالحين ، ويخدم فى ذلك بمهارة فائقة أغراضاً سياسية له ، سنبينها بعد فى موضعها أيضاً

ولا غرابة بعد هذا فى أن يهتم الرشيد بأمر أبى العتاهية فى هذه الحال الجديدة ، ويعرف سوء أثر شعره فى الزهد وما إليه فى نفوس الرعية بالنسبة إليهم ، وقد كان يشاهد افتتان الناس بأبى العتاهية وشغفهم بشعره الذى قرب إليهم ألفاظه ومعانيه ، وفتح لهم من أبوابه ما أغلقه الشعراء السابقون ، فصار يلهج به العابد فى خلوته ، والراهب فى صومعته ، والملاح فى سفينته ، والفلاح فى حقله ، والراعى فى غدوه ورواحه ، والعامل فى شغله وفراغه ، حتى صار شاعر الشعب بحق ، ولسان الرعية الناطق بالصدق . وإنا نسوق من ذلك ما يدل على مقدار تعلق الناس بشعر أبى العتاهية وافتتانهم به :

قال يحيى بن سعيد الأنصارى : مات شيخ لنا ببغداد ، فلما دفناه أقبل الناس على أخيه يعزونه ، فجاء أبو العتاهية إليه وبه جزع شديد فعزاه ثم أنشده :

لاتأمن الدهر والبس … لكل حين لباسا
ليدفننا أناس … كما دفنا أناسا

فانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبى العتاهية

وقال محمد بن صالح العلوى أخبرنى أبو العتاهية قال : كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية ، وهو فى الحبس ، قال فوجه إلىَّ الرشيد : قل شعراً حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر باطلاق ، فغاظنى ذلك فقلت : والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره ، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرْفُ الطَّموحُ … أيها القلبُ الجمُوحُ
لدواعى الخير والشـ … ـر دُنُوٌّ ونُزُوح
هل لمطلوب بذنب … توبة منه نَصُوح
كيف إصلاحُ قلوب … إنما هُنَّ قُرُوح
أحسن الله بنا أن … الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا … بين ثوبيه فضُوح
كم رأينا من عزيز … طُويت عنه الكُشوح
صاح منه برحيل … صائحُ الدهر الصدُوح
موتُ بعض الناس فى الأر … ض على قوم فُتُوح
سيصير المرء يوماً … جسداً ما فيه روح
بين عينى كل حىٍّ … عَلَمُ الموت يلوح
كلنا فى غفلة والـ … ـموتُ يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الد … نيا غَبُوقٌ وصَبُوح
رُحْنَ فى الوشى وأصبحـ … ـن عليهن المُسُوح
كل نَطَّاحٍ من الدهـ … ـر له يوم نطوح

نُحْ على نفسك يا مسـ ـكين إن كنت تنوح
لتموتُنّ وإن عُمّـ ـرتَ ما عُمّرَ نُوح

فلما سمع الرشيد ذلك جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً وقت الموعظة ، وأشدهم عسفاً فى وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا

وقد اختار أبو العتاهية عهد الرشيد لاظهار ما كان يخفيه فى نفسه من ذلك لأنه كان أقل غلظة من أبيه المهدى ، وأخيه الهادى ، وأخف منهما عسفاً وبطشاً . وقد ذكر ابن خلكان أنه أراد أن يظهر بذلك فى عهد المهدى ، فأمر المهدى بحبسه فى سجن الجرائم ، فلما دخله دهش ورأى منظراً هاله ، فطلب موضعاً يأوى فيه ، فاذا هو بكهل حسن البزة والوجه ، عليه سيما الخير ، فقصده وجلس من غير سلام عليه ، لما هو فيه من الجزع والحيرة والفكر ، فمكث كذلك مليا وإذا الرجل ينشد :

تعودتُ مسّ الضر حتى ألفته وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس واثقاً بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى

فاستحسن أبو العتاهية البيتين وثاب إليه عقله ، فقال له : تفضل أعزك الله علىّ باعادتهما ، فقال : يااسماعيل ويحك ! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك ! دخلت فلم تسلم علىّ تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألتنى مسألة الوارد على المقيم ! فقال له : اعذرنى متفضلاً ! فدون ما أنا فيه يدهش ! قال : وفيم أنت تركت الشعر الذى هو جاهك عندهم ، وسببك إليهم ؟ ولابد أن تقوله فتطلق ، وأنا يدعى الساعة بى فأطلب بعيسى بن زيد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه ، وإلا قُتلت ، فأنا أولى بالحيرة منك ؛ ثم دعى بهما فطولب الرجل بأن يدل على عيسى بن زيد فأبى ، فأمر المهدى بضرب عنقه . ثم قال لأبى العتاهية : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قال بل أقول ، فأمر به فأطلق

وقد كان الرشيد أشفق بكثير مع أبى العتاهية فى ذلك من أبيه . والذى أراه أن الرشيد كان يحبسه فى ذلك ثم يعفو عنه ، وأن ذلك تكرر منهما بقدر ما حدثتنا به تلك الروايات السابقة ؟

عبد المتعال الصعيدى

٢٧ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال : أما إن كانت الروح يا أصدقائى خالدة حقاً ، فما أوجب العناية بها ، ليس فى حدود هـذه الفترة من الزمن التى تسمى بالحياة وكفى ، بل فى حدود الأبدية ! وما أهول الخطر الذى ينجم عن إهمالها بناء على هذه الوجهة من النظر . لو كان الموت خاتمة كل شيء ، لـكانت صفقة الأشقياء فى الموت رابحة ، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم ، لا من أجسادهم فحسب ، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً . أما وقد اتضح فى جلاء أن الروح خالدة ، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا ، لأن الروح لا تستصحب معها شيئاً فى ارتقائها إلى العالم السفلى ، اللهم إلا التهذيب والتثقيف ، اللذين يقال عنهما بحق إنهما ينفعان الراحل أكبر النفع أو يؤذيانه أكبر الأذى ، إذا ما بدأ حجّته إلى العالم الآخر

فبعد الموت ، كما يقولون ، يقود كلّ امرئ شيطانُه (١) الذى كان تابعاً له فى الحياة ، إلى مكان معين يتلاقى فيه الموتى جميعاً للحساب ، ومن ثمّ يأخذون سمتهم نحو العالم السفلى ، يقودهم دليل نيطت به قيادتهم من هذا العالم إلى العالم الآخر ، فاذا مالقوا هناك جزاءهم ولبثوا أجلهم ، رجع بهم ثانية بعد كر الدهور المتعاقبة دليل آخر ، وليست هذه الرحلة للعالم الآخر ، كما يقول اسكيلوس Aeschylus فى « التلفوس » Ielephus ، طريقاً واحدة مستقيمة ، وإلاّ لما احتاج الأمر إلى دليل ، فلم يكن أحد ليضل فى طريق واحدة ، ولـكن الطريق كثيرة الشُّعب والحنايا ، وإنى لأستنتج ذلك مما يُقدَّم إلى آلهة العالم السفلى من الشعائر والقرابين ، فى أمكنة من الأرض تتلاقى عندها سبل ثلاث .

(١) فى الأصل Genius ومعنا روح طيبة أو خبيثة تسيطر على الانسان وتملى عليه كل أعماله منذ ولادته حتى يأتيه الأجل

فالروح الحكيمة المنظمة تكون عالمة بموقفها وتسير في سبيلها على هدى ، أما الروح الراغبة في الجسد ، والتي لبثت أمداً طويلاً - كما سبق لي القول - ترفرف حول الهيكل الذي لا حياة فيه ، وحول عالم الرؤية ، فيحملها شيطانها الملازم لها في عنف وعسر ، وبعد عراك متصل وعناء كثير ، حتى تبلغ ذلك المكان الذي تجتمع فيه سائر الأرواح . فان كانت روحاً دنسة ، خبيثة الصنيع بأن انغمست في الفتك المنكر ، وفي أخوات الفتك من الجرائم الأخرى ، وتلوثت بهذه السلسلة من الآثام - فان كل إنسان يفرّ من تلك الروح وينصرف عنها ، فلن يكون أحد لها رفيقاً أو دليلاً ، بل تظل تخبط وحدها في أرذل الشر ، حتى ينقضي أجل معلوم ، فاذا ما انقضى ذلك الأجل ، حُمِلَتْ خانعةً إلى مستقرها الملائم ؛ كذلك لكل روح طاهرة مستقيمة ، مضت في حياتها مرافقة للآلهة مترسّمة خطوهم ، مُقامها الخاص

هذا وإن في الأرض لربوعاً مختلفة عجيبة ، تختلف في حقيقة أمرها - كما أعتقد معتمداً على رأي ثقة لن أذكر اسمه - تمام الاختلاف عن آراء الجغرافيين من حيث طبيعتها ومداها . فقال سمياس : ماذا تعني يا سقراط ؟ لقد سمعتُ للأرض أوصافاً كثيرة ولست أدري مع أيها تذهب ، وأحب أن أعلم ذلك

فأجاب سقراط : حسناً يا سمياس ، لا أظن أن حكاية تروى تستلزم لروايتها فن جلوكس Glaucus ، ولست أرى أن فن جلوكس مستطيع أن يقيم الدليل على صدق حكايتي ، التي أنا عاجز تمام العجز عن إثباتها بالدليل ، وحتى لو استطعت ذلك ، لخشيت يا سمياس أن أختتم حياتي قبل أن يكمل الدليل ، ومع ذلك فقد أستطيع أن أصف لك صورة الأرض وربوعها كما أتصورها !

قال سمياس : حسبي منك ذلك

قال : حسناً ، إذن فيقيني أن الأرض جسم مستدير ، هو من السموات في مركزها . لهذا لم يكن بها حاجة إلى الهواء أو ما إلى الهواء من قوة أخرى ، ليكون لها عماداً ، بل هي قائمة هنالك ، تحول موازنة السماء المحيطة بها ، وتوازنها هي نفسها ، بينها وبين السقوط أو الانحراف في أية ناحية ، ذلك لأن الشيء الذي يكون في مركز شيء آخر منتشر انتشاراً متوازناً ، ويكون هو نفسه متزناً ، لن ينحرف بأية درجة في أي اتجاه ، بل سيظل ملازماً لحالة بعينها دون أن يحيد . ذلك هو أول رأي لي

فقال سمياس : وهو بغير شك رأي صحيح

- كذلك أعتقد أن الأرض فسيحة جداً ؛ وإننا ، نحن الذين نقيم في المنطقة التي تمتد من نهر فاسيس Phasis إلى أعمدة هرقليس Pillars of Heracles ، بمحاذاة البحر ، إنما نشبه النمل أو الضفادع احتشدت حول مستنقع ، فلسنا نأهل إلا جزءاً ضئيلاً ، وأعتقد أن كثيراً من الناس يقيمون في أمكنة كثيرة كهذه . فلا بد من القول بأن هنالك فجوات في أنحاء الأرض جميعاً ، مختلفاً أشكالها وحجومها ، يتجمع فيها الماء والضباب والهواء ، وأن الأرض الحقيقية أرض نقية تقيم في السماء النقية حيث سائر النجوم — تلك هي السماء التي يجري عنها الحديث عادة بأنها أثير ، وليس الأثير منها إلا ارساباً يتجمع في فجواتها ، وأما نحن الذين نقيم في هذه الفجوات ، فنظن مخدوعين بأننا إنما نقيم على سطح الأرض ، كما يخيل للكائن الذي في قاع البحر بأنه على سطح الماء ، وبأن البحر هو السماء التي يرى خلالها الشمس وسائر النجوم — فهو لم يطفُ على سطح الماء قط لوهنه وفتوره ، ولم يرفع رأسه ليرى ، ولا سمع دهره ممن شهد تلك المنطقة الثانية ، وهي أشد نقاء وجمالاً من منطقتنا . والآن ، فتلك حالنا تماماً : فنحن مقيمون من الأرض في فجوة ، ونخيّل لأنفسنا أننا على السطح ، ونطلق على الهواء اسم السماء ثم نتوهم أن النجوم سابحة في تلك السماء . ولكن ذلك أيضاً يرجع لما بنا من ضعف وفتور ، فهما اللذان يحولان بيننا وبين الصعود إلى سطح الهواء : فلو استطاع انسان أن يبلغ الحد الخارجي ، أو أن يستعير جناحي طائر ليطير بهما صُعُداً ، فيكون كالسمكة التي تطل برأسها لتشهد هذا العالم ، إذن لرأى عالماً قاصياً ، ولاعترف الانسان ، إذا ما شحذت طبيعتُه من بصره ، بأن ذلك هو مكان السماء الحق والضوء الحق والنجوم الحق ، لأن هذه التربة وهذه الصخور ، بل وكل هذه المنطقة التي تحيط بنا قد فسدت وتآكلت كما يتآكل كل ما في البحر من أشياء بفعل الأجاج . فيندر في البحر أن ينمو شيء نمواً رفيعاً كاملاً ، فكل ما فيه شقوق ورمال وحمأة لا نهاية لها من الطين ، لا بل يجوز أن تقرن البر

عما في ذلك العالم من مناظر هي أروع في جمالها ، فالعالم الآخر أسمى بدرجة عظيمة جداً . والآن أستطيع أن أقص عليك ياسمياس حكاية رائعة عن تلك الأرض العليا التي تحت السماء ، وهي جد جديرة بالانصات

فأجاب سمياس ونحن يا سقراط يسرنا أن نصغي

(يتبع) زكي نجيب محمود

الكاظمي

للأستاذ معروف الرصافي

ليس من غاية الحياة البقاء ... فلذا خاب في الخلود الرجاء
غير أن الحياة بالعز عند الرّ ... جُل الحر غاية غراء
أي فخر للناعمين بعيش ... لم تجلله عزة قعساء
حسب من رام في الحياة خلوداً ... أنه بعد موته علواء
وكفى المرء بعد موت حياةً ... أن ذكراه حلوة حسناء

***

قد قضى الكاظمي وهو جدير ... أن تعزى في موته الشعراء
عاش منسيَّ عارفيه ولما ... مات فاضت بنعيه الأنباء
ذكرته نعاته بنعوت ... قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان ما يقولون حقاً ... إنهم بالذي نسوا لؤماء
كيف ينسون في الحياة أديباً ... عبقرياً عَنَتْ له الأدباء
أفَيُنْسى حياً ويُذْكر ميتاً ... إن هذا ما تنكر العقلاء
إن هذا أمر يتيه ضلالاً ... في بوادي تفسيره الحكماء
ضحكوا منه في الحياة ومذ ما ... ت تعالى نحيبهم والبكاء

***

أيها النادبون غيريَ غُروا ... بَرِح اليوم للبيب الخفاء
يُكرم الميت بالثناء وتحيا ... عندكم في المهانة الأحياء
كل من يخبر الأناسيَّ خُبْري ... لا يبالي أأحسنوا أم أساؤا
أنا جربتهم إلى أن تساوى الـ ... يوم عندي سبابهم والثناء
قد تمادى في القائلين غلوٌّ ... وتوالى في الفاعلين رياء

***

أيها الكاظمي نم مستريحاً ... حيث لا مبغض ولا إيذاء
عشت في مصر باحترام يؤديـ ... ـه إليك الأماثل الفضلاء
إن للنيل من جرائك شكراً ... ستؤديه دجلة اللَّسْناء
لم تعش عيشة الرفاه ولكن ... لك في العيش عزة وعلاء
أي حر في الشرق عاش سعيداً ... لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئاً إن لم تعش في العراقيـ ... ـن مضاعاً تنتابك الأرزاء
من شقاء العراق إن ذوي النعْـ ... ـمة فيه أجانب غرباء

***

إن جَفَتنا بلادنا فهي حب ... ومن الحب يستلذ الجفاء
لم نحل عن عهودها مذ جفتنا ... بل لها الود عندنا والوفاء
قد بكينا شجواً عليها ومنها ... وعنانا سقامها والشفاء
كم أردنا سخطاً عليها ولكن ... غلب السخطَ في القلوب الرضاء
إنما هذه المواطن أمٌّ ... مستحق لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاءً ... ومن الأم هل يراد جزاء؟
إنما نحن مصلحون وما إنْ ... غاية المصلحين إلا الرفاء
نحن كالشمع حين ذاب اشتعالاً ... فهدى المظلمين منه الضياء

بغداد — معروف الرصافي

البقاء

بقلم إلياس قنصل

أزهدُ الناسِ في الحياةِ يُمنّي ... نفسه بالبقاءِ رغم شكاتِهْ
والذي أفنت الليالي صباه ... ورماه زمانُه بأذاتِهْ
يطلب الموتَ وهو أمّا أتاه ... ردَّه عنه ملغياً كلماته
وإذا خاضَ قائدٌ غمرةَ الحر ... بُ فيها بسيفه وقناته
حدّثَ النفسَ بالرجوع سليماً ... وسماتُ النجاح في قسماته
وإذا قامَ رائدٌ يطلبُ المرّ ... يخ حيث الحِمام بعضُ هداته
ودّعَ الأرضَ آمناً مطمئناً ... واثقاً من معادِه ونجاته
كلّنا يعشقُ الحياةَ ويهوى الـ ... عيشَ فوق الثرى على عِلّاته
ربَّ ساعٍ إلى الخلود مجدٍّ ... يغلبُ الناسَ والقضا بثباته
ليس يسعى وإن يُرقْ دمُه إلا ... ليحيا مكرَّماً في حياتِهْ

عاصمة الأرجنتين — إلياس قنصل

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٢ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

حاسته الفنية

لم يكن نيتشه مفكراً فحسب ، بل كان فناناً ذا حاسة فنية عميقة ، يدل على ذلك ميله خلال طفولته الأولى إلى الموسيقى وعشقه لأربابها . وهل كان إلا غرامه بها الذى جعله ينظر إلى « ڤاجنر » كمثل أعلى لموسيقى عصره ؟ وقد انكب على تلقن أصولها ومبادئها فى صباه الأول ، ودفعته حاسته إلى نظم بعض المقاطيع الموسيقية . وما هى إلا خطوة واحدة لو خطاها نيتشه لأشرف على عالم غير عالمه ، ولأشفى على وجود قد يبدل كل أفكاره وكل آرائه . وهو يقول عن نفسه « لو لم ترجح كفة التفكير عندى لكنتُ الآن موسيقياً ! » على أن ذوقه الموسيقى لبث حياً فى طوايا نفسه . يرتاح للموسيقى أينما صدحت ، ويغيب فى عوالمها حيث تفتحت عوالمها . وهو أكثر مايطمئن لتلك العوالم الفنية المظلمة التى تذهل فيها النفس وتدرج إلى أعماقها حيث يلتقى الفيلسوف والفنان . وقد يؤاخى هذه الحاسة — عنده — حاسته الشعرية . فهو شاعر بالفطرة ، يبدى آراءه الفلسفية بطريق الشعر ؛ وله فى الشعر جولات صادقة تدل على فن عميق وابتكار رائع . وهو وان صدف عن عالم الشعر فان حاسته الشعرية لم تخمد ، بل ظلت تعاوده فى كل ما كتب وسطر . وانشاؤه يغلب عليه الشعر والعاطفة . لا يرى قارئه فى تأملاته عقل نيتشه وحده ، وإنما هو واجد كل كيانه يفكر ويكتب ، يطلع عليك بوجوده كله لا بفكره وحده

الانطواء

تكاد تكون تفاصيل حياته الشخصية محدودة . فهو قد ولد عام « ١٨٤٤ » فى « روكن » ، حيث كان أبوه قسيساً . وقد تيتم فى الخامسة من عمره . فأتم دروسه الثانوية وتوجه إلى الدروس العالية . وبينما كان يتهيأ للموضوع الذى ينال به « الدكتوراه » فى « ليبزيج » دُعى ليكون أستاذاً فى جامعة « بال » وقد مُنح « الدكتوراه » بدون أن يعرض موضوعه قضى ستة أعوام هادىء النفس فى الجامعة يقوم بتدريس اليونانية ، وهو خلال هذه الأعوام كالمقيد بصحبة أصدقائه لايخرج من حلقتهم ، وهؤلاء الأصدقاء هم زملاؤه وبعض رفاقه ، أضف إلى ذلك بعض زيارات متتالية إلى منزل الفنان « ڤاجنر » . وقدكان يختلس بعض الفرص فيذهب فى بعض سياحاته القصيرة إلى البحيرات والجبال ، ولم يعكر عليه هذا الهدوء إلا إعلان الحرب السبعينية ، فهجر الجامعة وتطوع فى الجيش الألمانى ، ولكن صحته خانته ، فاضطر إلى العودة مريضاً ، وأعظم ما قام به من الآثار الأدبية خلال هذه الفترة كتابه « نشوء المأساة » ونقده للحضارة الحديثة . فى الكتاب الأول يعالج نبوغ اليونان وعبقريتهم المختلفة فى الفنون ، وفى الكتاب الثانى يعرض « تأملات فى غير حينها » وهو ينطوى على أجزاء : فى الجزء الأول يحمل على « دافيد ستراوس » ، وفى الجزء الثانى يبحث فائدة التاريخ وأخطاره ، وفى الجزأين الأخيرين يبسط عبقرية الفيلسوف « شوپنهاور » وعبقرية الفنان « ڤاجنر » معتقداً أن فى امكان هذين النابغتين أن يقودا الانسانية إلى مثلها الأعلى

وفى سنة ١٨٧٦ عرا حياته الداخلية ماعرا حياته الخارجية من تطور وتبدل ، وأعظم ما نزل به نزاعه مع صديقه « ڤاجنر » أضف إلى هذا ما حاق بصحته من سوء واعتلال ، حتى منحته الجامعة فرصة يقضيها إذا شاء فى إيطاليا أو على هضاب سويسرا . وبعد هذه الراحة عاد إلى بذل الجهود برغم أن صحته كانت تنذر ولا تبشر . فجمع سنة ١٨٧٨ كتابه « أشياء إنسانية ، إنسانية جداً » وكتاباً آخر يضم « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » فزادت صحته ضعفاً حال بينه وبين التعليم ، فاعتزل الجامعة لكى يجد المجال الفسيح والقوة الكافية لتتميم رسالته الفلسفية

وها هنا بدل القدر صفحة حياته ، ومنحه حياة جديدة يغمرها الاعتزال ، وحرية التفكير والانفصال ، يكمل تحت ظلها هذه الرسالة التى خُلق لها

***

لم يكن ميل نيتشه إلى دراسة اللغات القديمة مجرد هوى أوهيجان ابن ساعة ثم ينطفىء . فقد مال نيتشه إلى هذه الدراسة بقلبه وعقله ، ذلك لأنه يريد أن يظهر أمره فى علم ضيق المساحة ليدرك العلم فضله . وهو أكثر الناس علماً بقيمة العلماء الناقصين الذين يعلمون كل شىء ولا يعلمون شيئاً . وها هو ذا الآن لا يريد أن يعرف كل شىء ، وإنما يريد أن يعرف شيئاً معرفة متقنة ، فبذل

القصص

من أساطير الإغريق

هرقـــل

فى سبيل التفاحات الذهبية

للأستاذ دريني خشبة

٧ — خيول ديوميديز

وكان الملك ديوميديز ، ملك تراقيه ، يقتني مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار ، ولا تباريها خيول في مضمار ؛ ولكنها لم تكن كهذه الخيول التي يقتنيها الناس ، بل كانت بالوحوش أشبه ، وإلى السباع أقرب ، لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تسيغ النبات ، بل بالعكس ، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً . .

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم ، وتستطيب لحم الانسان وتستلذه ، ولم يكن الملك القاسي يبخل عليها به . ولكي يوفّر لها هذا الغذاء الغريب ، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبي تطأ قدماه أرض البلاد بدون إذن من الملك ! فلما نمى الخبر إلى يوريذوس ، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله .

وشد هرقل رحله إلى أرض تراقيه ، ودخلها غير مستأذن ولا مستأنس ، فلماسأله ديوميديز في ذلك ، انقض عليه كأنه الحتف ، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به إلى خيوله فألقاه إليها . . .

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقاً ، واغتذت بلحمه الملكي الفاخر ! ! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم ، ونثر الورد والريحان تحت قدمي هرقل ، ومضى البطل فألجم الخيول كلها ، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريذوس ! !

٨ — منطقة هيبوليت مليكة الأمازون

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء ، مشغوفة

ما بذل من صبر وجهد بذل الأمين الراعي لأمانته . مدرعاً بالأناة التي لا غنى عنها للذاهب مذهبه . راضياً بأن يزهق روحه في سبيل العلم وخدمته . ولكنه سالك فيه مسلكا جديداً لا أثر فيه للتعاليم الدارسة ، وللتقاليد التي لا تجدي شيئاً . وهو يمزج هذه الدراسة مع الفلسفة والفن ويجعل من هذا المزج مزيجاً جديداً

يعتقد نيتشه بأن المثل « الكلاسيكي » سيبقى خالداً لا يهدده الفناء . فلا العلم ولا الخلق ولا التثقيف بمستطيعة أن تنقذنا من البربرية إذا سلخنا المثل الكلاسيكي ، وكفرنا بالبساطة الشريفة التي تتجلى في الفن اليوناني والبراعة اليونانية . وإذا شاء رسل العلم أن يجحدوا هذه البراعة وينكروها على اليونان ، فانها براعة سائدة خالدة مسيطرة على براعتنا ، تدل على أن اليونان كانوا أكثر توفيقاً منا في حل مسائل الوجود

وهكذا تظهر مهنة « دارس علم اللغات » مهنة جميلة سامية هو لا يعنى باحياء الآثار العافية ، والنصوص البالية ، ولكنه كادح دائب على احياء روح اليونان القديمة ، يريد أن يتفهم كيف قدر لهذه الروح أن تتسامى وتتعالى في الآثار التي تركتها ، والفنون التي أنجبتها ، والمؤثرات التي تركت تأثيرهم بادياً في أدبنا وفلسفتنا ، فجعلت منهم أساتذة لا يزال الغرب يتلقن عنهم . هذا هو دأب نيتشه يوم دخل جامعة « بال » مدرساً . يقول في إحدى محاضراته « إن دراسة علم اللغات ليست بآلهة شعر ولا بنبية رحمة ، لكنها رسولة الآلهة ، والآلهة في القديم كانت تهبط على القرويين المحزونين . واليوم تهبط هذه الرسولة على عالمنا القاتم الألوان ، المظلم الرسوم ، المفعم بالآلام والشقاء الذي لا يشفى ، حاملة إلينا بلسم العزاء ، عارضة علينا بأحاديثها تلك الوجوه الجميلة المتألقة في قطر خصب أزرق سعيد »

(يتبع)

خليل هنداوي

باقتناء الحلى والجواهر النادرة ، تضحى فى سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا ، إذا اقتضت الحال حرباً من أجل ياقوتة أو زبرجدة ! !

وكان أبوها الأفين يلبى رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً ، فلما وُصِفَت لها مِنْطَقَةُ هيپوليت ، مليكة الأمازون ، وما رُصِّعت به من اللآلئ ، ثار فى نفسها فضول الذهب ، وألم بها مرض الحصول عليه . فانطلقت إلى أبيها تبكى ، وتشكو العطل وقلة الحلية ، ولو أن خزائنها تحوى نصف ثروة المملكة

وسألها أبوها ما بكاؤها ؟ فتاهت قليلاً ودلَّت ، ثم ذكرت منطقة هيپوليت ! !

وربت الملك على كتفى ابنته ، ودعا إليه هرقل ، وأمره بالذهاب إلى الأمازون والحصول على منطقة الملكة ولو أدّى دمه ثمناً لها ! !

أما الأمازون ، فقبيل عظيم من النساء المحاربات ، يحيين حياةً عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحيّر الألباب وتذهل العقول . فمنهن فريق يعمل فى الحصون ويسهر على قلاع المملكة ، وفريق للغزو ومناوشة الأعداء ، وثالث يقوم بمهمة الشرطة والعسس ، ورابع للعمل فى الأسطول الذى يلقى الرعب فى الشواطئ ... ... الخ

ولا يعيش بين شعب الأمازون أحد من الرجال ، فاذا جازف رجل ، وانسرق بينهن ، ترصّده الموت فى كل مكان !

وكانت مملكتهن فى جزيرة نائية قاصية ، ذهب هرقل فى البحث عنها كل مذهب ، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوه إليها

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى مملكة الأمازون ، ولكنه أبى ، لأن مجازفاته التى يتعرض بها للهلاك ، إن هى إلا ثمن الحرية التى ينشدها ويحلم دائماً بها !

ووصل هرقل إلى المملكة ، وتحايل حتى مثل بين يدى الملكة ، فلقيته بما هو أهله من التجلة والاكرام ، كأنه إله عظيم . . وأبدى رغبته فى الحصول على المنطقة الغالية التى تزين وسط الملكة ، وتحلّى خصرها ، ليقدمها ثمناً لحريته الضائعة ، للفتاة المزهوّة (أدميت) بنت ملك أرجوس ...

وتبسّمت الملكة ، ووعدته أن تخلعها عليه ، ليصنع بها بعد ذلك مايشاء . ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة ، وعشاء فاخر ...

وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها ! !

لقد هالها هذا النجاح المطّرد الذى يظفر به خصمها فى كل مكان ، فتحولت إلى أمازونة جميلة ، واندست بين رعايا الملكة ، وألقت فى روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن ، وأنه إنما أقبل ليَسبىَ الملكة ، وليفر بها إلى ملك أرجوس ، وأنه اتخذ المنطقة تعِلَّةً لذلك جميعاً ، فثارت ثائرة الأمازون ، وتجمهرْن حول الملكة ، وصارحنها بما قالت لهن حيرا . فأمرتهن بالحرب ... ولكن هرقل ، البطل الأعزل ، انقض كالمنية على الأمازون ففرّق شملهن ، وأظفرته شجاعته بهن ، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها ، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة ، فأشار إليها قائلاً : « وهنا أيضاً أنتصر عليك ، وسأنتصر عليك دائماً ! »

٩ — وطربت ابنة الملك بمنطقة هيپوليت أيما طرب ، وكبرت فى نفسها منزلة هرقل ، فاستوصت به أباها خيراً

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته فى هرقل ، فلم يكلفه هذه المرة شططاً ، بل اكتفى أن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستيمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التى تُدوّم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك ، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى ، فتنتشر بذلك الأمراض والطواعين . ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه الرنان ، وفى كنانته سهامه التى رويت من دم هيدرا

١٠ — قطعان الجريونز

وكان يأوى إلى سفوح الجبال فى مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جريُونز . وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم عرفت فى سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها ، حتى لكان يضرب بها المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم

وطمع يوريذوس فى نَعَم جريونز وشائه ، فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها

وأغذّ هرقل السير ؛ وألفى المارد مُمدداً فى كهفه السحيق يغط فى نوم عميق ، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد ، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته إلا جثة لا نأمة فيها ولا نَفَس ! وساق القطعان ، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة ، والوفر الكثير

وأرخى الليل سدوله ، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق ، فأناخ فى منحدر معشوشب ، ولعبت سنة من النوم بعينيه فغفا ،

وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لأحلامه الحجرية الحلوة . . .

وكان يأوى إلى هذا الجبل ، جبل آفنتين ، مارد لص قطاع طريق ، يدعى كاكوس ، وجد هرقل غارّاً فى سبات ناعم ، فذهب بنصف القطيع أو يزيد . . . .

واستيقظ البطل على رُغاء يتجاوب فى حدود الأفق ، فلما تفقد قطعانه انطلق فى أثر اللص حتى لحق به ، وحطمه تحطيما !

وقبيل شروق الشمس ، كانت مدينة أرجوس كلها عند الأبواب تستقبل الرزق والغُنم ، وتهتف باسم البطل الحلاحل الذى بهرها بشجاعته ، وخلب ألبابها بما أبدى ، وما ينفك يبدى ، من ضروب القوة والاستبسال

وأحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الأهالى من المحبة والافتتان بهرقل ، فتسخط وحنق ، وبيّت الشر المستطير

١١ — تفاحات هسبريا الذهبية

وأدركت حيرا ما ينقم الملك من هرقل ، فوسوست اليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية ، وهيهات هيهات أن يستطيع أحد الحصول عليها !

ولقد أهديت هذه التفاحات الى حيرا ، ليلة زفافها الى زيوس ، رب الأرباب ، فيما أهدى إليها من تقدمات وتحف ؛ أهدتها إليها (جى) ربة الأرض ، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها . لأنها فضلاً عن أنها من الذهب الخالص ، فقد رصعت بأندر اللآلىء ، وزينت بصور الآلهة ، ونقشت فيها حدائق الأولمب ؛ ثم هى تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت : ذلك أنها إذا غابت الشمس ، وأقبل الليل بظلامه ، شعّت أضواء ولألاء قل أن تصدر إلا عن كوكب درّى ، أو شمس وضاءة ، فتنقشع الغياهب وتنجلى الدياجير !

وحسبك أن تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الأولمب وحرّاسها الغلاظ على هذه القُنْيَة النادرة ، فأرسلت بها إلى الهسبريد ، بنات هسبروس إله الغرب العظيم ، ليحرسْنَها . ولتكون عندهن فى مأمن من كل سارب بليل ، أو سارق فى نهار ، وقد عرف الهسبريد لهذه التفاحات قيمتها ، فعلّقنها فى دوحة باسقة فى حديقة قصرهن المنيف ، وأقمن على حراستها التنين الهائل لادون ، الذى قيل فى صفته إن له سبعين ألف رأس فى كل رأس سبعون ألف عين ، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً . ثم إنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سُمكاً ، وإن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرمز ، وإن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن ، ومُكاءُ الشياطين !!

وانقلب هرقل على وجهه فى الأرض حيران !

أين هى تفاحات هسبريا هذه ؟

« أفى الأرض أم فى السماء ؟ لأمض ! فرب إله دلّنى إليها . . . »

وشرّق وغرّب ، وذرع الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، وانسرق إلى الكهوف والغيران ، وأوغل فى الجبال ، وتحدّر فى القيعان ، ومر بكل حنيّة ، ووقف عند كل عين ، حتى كان لدى نهر أريدانوس ، ووقف بشاطئه يتناجى ؛ فخرجت من الماء النمير عرائسه ، ورحن يُسَرّين عن هذا اللاجئ الحزين

وإنه ليسائلهن عن تفاحات هسبريا ، فيحدثنه ويتلطفن معه ، ثم ينصحن له أن ينطلق إلى نريوس إله البحر ، عسى أن يهديه إلى ما يريد

ويهيم فى الأرض محاذياً سيف البحر ، حتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم ، وخط الشيب رأسه ، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذى النتوء ؛ وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون ، وتطل من حدقتيهما الأحداث !

وجده جالساً القرفصاء مُقَلِّباً ناظريه فى مملكة الماء التى تتصل باللانهاية ، فألقى عليه تحيــة هيّنة ، رد عليها الشيخ بهذه العبارة :

« أيها الفتى لم قطعت علىّ تأملاتى ؟ ! »

« فقال هرقل : « أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلاّ ما أخبرتني عن حدائق الهسبريد ، فتكون لك علىّ يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها ! »

وتجهّم نريوس وقال : « حدائق الهسبريد ! أوْه ! أنت هرقل إذن ! »

فبهت هرقل وأجاب : « أى وحقك أنا هو ، فمن ذكرنى عندك ! ؟ »

— « ليس هذا من شأنك يا بنى ، ولكن لعلك تبتغى تفاحاتها الذهبية ؟ »

— « إى وزيوس يا أبتاه ! »

— « بشراك إذن ! فلن يحصل عليها إلا أنت ، ولكنك لست أنت الذى ستنفذ إلى حدائق الهسبريد ! إذهب إذن فالتمس

المسكين پرومثيوس (١) مكبَّلاً فوق جبال القوقاز ، فأحسن إليه ، وسَلهُ حاجتك ، فهو وحده الذى يستطيع إرشادك إلى ما تريد . . »

وشكره هرقل ، وحياه ، وأطلق ساقيه يطوى الفيافى إلى القوقاز . وهناك وجد پرومثيوس والرّخ ينوشه ، بحيث يمزق كبده ويهرأه ، ويغتذى به ؛ فوتر قوسه ، وسدد إلى الطير سهماً أصماه ، وخلص إلى الآله البائس فأزال أصفاده ، واحتمله إلى السفح ، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه ، ثم تحدّث إليه عن حدائق الهسپريد وتفاحاتها الذهبية . فحدجه پرومثيوس بنظرة فاحصة ، وقال له : « لكأنك هرقل إذن ؟ »

— « أجل أنا هرقل يا أبتاه ! »

— « وأنت عدو حيرا يا بنى ؟ »

— « عدوها المبين يا أبتاه ! »

— « مسكين ! ! »

ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته ، وطار لونه ، وهاجت فى فؤاده البلابل والأشجان ؛ ثم اتصل الحديث ، وقال پرومثيوس :

— « انطلق يابنى إلى أخى أطلس ؛ هناك . . . هناك فى إفريقية المظلمة شمالاً بغرب ؛ تجده على قنة جبل شامخ يحمل السماء على منكبيه ، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب . فأقرئه سلامى ، وزُفّ إليه بشرى خلاصى مما أوقع زيوس بى ، ثم حدّثه بحاجتك يقضها لك ، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسپريد ، وهو وحده يستطيع أن ينفذ اليها ، وهو وحده يستطيع قتل لادون التنين الهائل الذى يحرس تفاحات هسپريا الذهبية ؛ فاذا أتاك بها ، فاحذر أن يأخذك بشىء من مكره ، فانى قد علمت أنه بدأ يتململ من حمله الثقيل ، ويود لو ينجيه منه أحد ، ولو انتثرت الكواكب ، وانتقض نظام الكون ! »

هرقل يصارع انتيوس

وفى طريقه إلى أطلس ، لقى من الأهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الأيام إلى زماننا هذا . من ذلك أنه مرّ بقوم من الأقزام ضئال الأجسام قصارها ؛ كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم مفتول العضل : ليحميهم من جيرانهم الأعزّاء الأقوياء ، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسية التى كانت تتلف أعنابهم وتبيد زروعهم كلما تم نضجها فى كل عام . وكان ذلك المارد — أنتيوس — ذا حوْلٍ وذا طوْلٍ ، حتى لكان يخشاه الوحش ، ويتخوّفه الجن ، وترجف من صولته أفعوانات البحار ، فلما شهد هرقل يخبُّ فى أفق البلاد كأنه جبل يتدهْدى ، أخذ أهبته لمنازلته ، ولم تساوره ذرة من الشك أنه منتصر عليه

فلما وصل هرقل ، حيا أحسن تحية ، ولكن أنتيوس لم يجب ، بل إنه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل ! !

— « ماذا بك أيها الأخ ! دعنى فليست لى عندك حاجة ! »

— « لا ، لانجوتَ إن نجوتَ ! لا أرى إلاّ أن أصرعك ! »

— « ولِمهْ ؟ ! »

— « هذا مالا أعرف ، ولكن لابد من أن أصرعك على أية حالة ! »

وتصارع الخصمان ، وأقبلت الأقزام ترى إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلببه تلبيباً !

وكان أنتيوس كلما خانته قواه ، وأيقن أن هرقل لابد صارعه ، وقف قليلاً على أديم الأرض يستمد منها قوة ، ويستلهم الحول من أمه (جى) . . .

فهو ابن جى إذن ، ولن يسر ربة الأرض أن يصرع ابنها أحد ، إذن فلتمده بكل مافى سرها من قوة ليصرع هرقل !

وخارت قوى البطل ! وراح يلهث من شدة النصب ؛ بيد أنه تنبه إلى السر آخر الأمر ، عند ما لحظ أن أنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض ؛ فرفعه رفعة هائلة ، ولم يمكنه من الوقوف لحظة على قدميه ؛ ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل ، حتى شهق شهقة كانت هى شهقة الموت . . !

فألقى به . . . ومضى لشأنه ! !

وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطىء ، ويترامين بلآلىء مما يعد لديهن من حصباء البحر ؛ فوقف غير بعيد وهتف بهن :

« يا عرائس الماء الجميلات ! هل لكن أن تهدينى إلى أطلس الذى يحمل السماء ، ويمسك كواكبها أن تقع ! ؟ »

وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر ، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت : « امض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذى يفصل البحر المحيط من مائنا هذا (وكان البحر الأبيض) ، فاذا استطعت أن تنفذ فانك تكون على فراسخ من أطلس . . . »

(١) العدد ٩٩ من الرسالة

وشكرها هرقل ، وانطلق . . .

وكان أمام السد ؛ ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قُنن وقلال وأحياد ؛ فلما لم يستطع أن يتسلقه ؛ ضربه بيمينه ضربة ، وبشماله أخرى ، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها ، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية ، ماتزال تعرف إلى يومنا هـذا بأعمدة هرقل ! ! (١)

ونظر فما هاله إلا هذا الآله العظيم سامقاً فى الأفق ، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء . والنجوم منتثرة حوله كأنها قطرات أمطار فى يوم عاصف !

وتقدم هرقل فحيَّا الآله الضخم ، وحياه الآله الضخم بأحسن مما حيا هرقل ، ثم أقرأه هذا تحية پرومثيوس ، وزف إليه بشرى خلاصه من الصخرة التى ظل مكبَّلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً !

وطرب أطلس لهذه البشرى ، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مغطَّاة بالثلوج ، ثم قال :

— « ومن أنقذه من عذابه الطويل يا صاح ! »

— « أنا إن كان يسرك ذاك النبأ »

— « أنت ؟ أنت من المكرمين إذن ! مرحباً بك أيها المخلص الأمين !

لقد كدت ألقى بهذا الحمل الذى ترى لأنقذ أخى ، ولكنى خفت أن يهلك العالم بمن فيه . . . و . . . على ذكر أخى ، كيف هؤلاء الناس الذين خلق ؟ أبخير هم ؟ وهل يخبتون له حقاً ؟ إن زيوس مغيظ منهم ، وامرأته حيرا محنقة كذلك ، أعندك من أخبار هؤلاء شىء ؟

— « عندى أشياء يا أبتاه . . أنا ابن زيوس من ألكمين ، وقد نقمت حيرا على والدتى ، فأرادت أن تفجعها فىَّ ، وقد أغرت رب الأرباب بى ، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر ، وقد أرسلنى أجوب الآفاق وأذرع الأرض من أجل تفاحات هسپريا الذهبية ، وقد ذكر لى أخوك ، بعد إذ أطلقته ، أنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسپريد وأنك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات ، فهل أسعد بأن تؤدىَ لى هذه اليد ؟ لقد كادت حيرا كيدها هـذا ، وإلا تنصرنى أكن من الهالكين ! »

وشاعت الخيلاء فى أعطاف أطلس ، وسرت حُمَيَّا الزهو فى ظهره الشامخ ، فقال : « أجل يا صاح ، لن يستطيع قتل لادون غيرى ، ولن يدخل حدائق الهسپريد سواى ، ولكن كيف أترك حملى هذا لآتيك بالتفاحات ؟ »

ونظر هرقل إلى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال : « أنا أحمل عنك هذه القبة يا أبتاه ، حتى تعود بالتفاحات !! »

وما كاد يتم كلمته ، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء ، وانطلق أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار ، يمتّع نفسه بمشية حرة طليقة فى حدائق الأرض الغناء !!

وغبرت أيام . . .

ثم ذكر تفاحات هسپريا ، فذهب إلى حدائق الهسپريد ، واقتحم الأسوار ، وانقض على التنين لادون فزلزلت الأرض تحتهما ، ولم يدعه يفلت ، برغم مرونته فى الوثب وسرعته فى الالتفاف ، حتى خرّ صريعاً

ومد يده إلى الأيكة الذاهبة فى السماء فتناول التفاحات المتلألئة الوضاءة ، وعاد يزهو ويختال إلى حيث هرقل المجهود المتعب

وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذى يؤود هرقل ، حتى ذكر الأدهار السحيقة التى لبث يتململ طوالها تحت عبئه ؛ فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود الى حمله الشاق . . . وبدا له أن يدع هرقل ويمضى . . . ولكن هرقل المتعب فطن الى ما وقر فى قلب أطلس ؛ فناداه : « أبتاه ! لعمرى ان حملك لأخف من الهواء ؛ ولعمرى انني لأستطيع أن أصمد له الى نهاية الأبد ! »

وبهت أطلس وقال : « إذن لتمض فى حملك مادام يسرك ! »

فأجاب هرقل : « ليس أيسر من هذا ! ولكن هل تسمح فتحمل مكانى برهةً حتى أضع حوِيَّة فوق كتفىَّ ، فانى أشعر بنتوء فى أديم السماء ! ! »

وقبل أطلس المغفل ، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الأخضر ، وتقدم فحل محل هرقل ! !

والتقط صاحبنا التفاحات ، وانطلق لا يلوى على شىء ! !

وبعد رحلة طويلة مضنية ، دخل على يوريذوس بالقُنْية الغالية التى خلبت لب فتاته أدميت ؛ وخرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها

(لها بقية) دريني خشبة

(١) بوغاز جبل طارق

البريد الأدبي

لورد هيدلى عميد المسلمين الانكليز

نعت إلينا أنباء لندن الأخيرة عظيماً من عظماء الانكليز يعرفه المسلمون جيداً فى مشارق الأرض ومغاربها هو لورد هيدلى زعيم المسلمين فى انكلترا

توفى لورد هيدلى فى الثمانين من عمره بعد حياة حافلة متنوعة الأطوار والأوضاع وبعد أن لبث اسمه يرن فى العالم الاسلامى أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، مذ اعتنق الاسلام ، وكان أول من اعتنقه من أشراف الانكليز

ولورد هيدلى من صميم الأرستقراطية الانكليزية ، ولد فى سنة ١٨٥٥ ؛ وأبوه الشريف النسون ون ابن بارون هيدلى . وتلقى تربية جامعية حسنة فى وستمنستر وترنتى وكامبردج ؛ وبرع فى الرياضة منذ فتوته ولا سيما « البوكس » وألف فى هذا الفن رسالة ذاعت فى وقتها ذيوعاً كبيراً . ثم اشتغل حيناً بالتدريس ، ثم بالصحافة حيث كان يحرر جريدة « سالسبورى » ؛ ثم اشتغل بالاعمال الهندسية التى تخصص فيها ، وعمل مدى حين سكرتيراً للسير هنت ، وسافر بعد ذلك إلى الهند حيث تولى عدة أعمال ومشروعات هندسية هامة ، ولا سيما فى أعمال الموانى ، وذاعت شهرته الفنية يومئذ واعتبر من أعلام المهندسين

وفى سنة ١٩١١ غدا ر . ح . النسون لورد هيدلى بعد وفاة عمه البارون هيدلى ؛ وفى نفس هذا العام ، فى مأدبة عقدتها الجمعية الاسلامية بلندن ، أعلن لورد هيدلى الجديد أنه اعتنق الاسلام ، وأنه لم يقطع علائقه مع ذلك بالكنيسة البروتستانتية التى نشأ فى ظلها ؛ وكان إسلام اللورد هيدلى حادثاً اجتماعياً عظيما فى انكلترا ، وثار حوله الجدل مدى حين ، وحملت بعض الهيئات والصحف على اللورد المسلم حملات شديدة ، ولكنه لم يحفل بها واستمر فى طريقه يدعو إلى الاسلام ويفاخر باعتناقه

وفى سنة ١٩٢١ تزوج لورد هيدلى للمرة الثانية بعد أن توفيت زوجه الأولى فى سنة ١٩١٩ ؛ وكانت زوجه فى هذه المدة مسز باربارا بانيتون ، وكان قد بلغ السادسة والستين من عمره .

وفى سنة ١٩٢٣ انتخب اللورد هيدلى رئيساً للجمعية الاسلامية بلندن تنويهاً بخدماته للدعوة الاسلامية ، وفى هذا العام سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج ، وأنعم عليه الملك حسين ملك الحجاز يومئذ بوسام النهضة العربية ؛ ولُقب اللورد من ذلك الحين « بالحاج هيدلى » وغلب عليه اللقب الجديد

وفى سنة ١٩٢٩ ، تزوج الحاج هيدلى للمرة الثالثة بأرملة الماجور باسفورد وكان يومئذ فى الخامسة والسبعين

وكان اللورد هيدلى رجلاً وافر النشاط والذكاء يجمع بين مصالح كثيرة مختلفة ، ويدير دفة طائفة متنوعة من الأعمال الهامة ، ويسير بها جميعاً فى طريق التقدم والنجاح

وقد ترك اللورد المتوفى من زوجه الأولى أربعة أولاد ؛ وورثه فى لقب اللوردية ولده البكر رولاند ياترك النسون ون

***

ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن هناك طائفة من مشاهير الانكليز اعتنقوا الاسلام فى مختلف العصور ، ومن هؤلاء رجل من اكستر يدعى يوسف بتس أسره القرصان المغاربة سنة ١٦٧٨ وأرغم على اعتناق الاسلام ، وأدى فريضة الحج مع سيده . ثم فر بعد ذلك إلى أزمير ونشر رسالة عن مغامراته ؛ ومنهم توماس كابث الشهير الذى اعتنق الاسلام ووصل إلى منصب « الأغا » فى بلاط السلطان باستانبول ، ثم انتهى بأن عين حاكما للمدينة المنورة . ومن مشاهير الانكليز الذين أسلموا فى عصرنا الحاج عبد الله فيلبى (سنت جون فيلبى) مستشار الملك ابن السعود ، واللايدى إيفلين كوبولد صاحبة كتاب « الحج إلى مكة » الذى ترجم أخيراً إلى العربية ، ومنهم الدكتور نولان الذى كان مديراً للأمن العام ، واعتنق الاسلام ثم سافر إلى تركيا ، وهاجر بعدئذ إلى أمريكا ، ومنهم كثيرون من المستشرقين الذين أسلموا لأغراض علمية وسياسية

ذكريات عن بيير لوئيس

منذ عشرة أعوام ، فى يونيه سنة ١٩٢٥ توفى الكاتب والشاعر الفرنسى الكبير بيير لوئيس ، فى الرابعة والخمسين ، عنزله فى شارع بولا نفلييه بباريس ؛ وكان يعانى آلام المرض قبل وفاته بأعوام طويلة ، والآن يحتفل أصدقاء الكاتب الكبير بذكرى وفاته ، وهذه سنة مؤثرة فى فرنسا ، فقلما يودع هذه الحياة كاتب أو شاعر أو نابغة من نوابغ العلم أو الفن حتى تقوم جمعية من أصدقائه والمعجبين بنبوغه لتعمل على تكريم ذكراه فى كل مناسبة ، وتذكى فى نفوس الخلف حب تراثه ، وقد كان لبيير لوئيس مكانة خاصة فى نفوس الخاصة وذوى المشاعر الرفيعة ؛ ذلك لأنه يثير بروعة بيانه ورقة أسلوبه شجناً لا تملك مغالبته ، وقد بدأ بيير لوئيس حياته الأدبية بانشاء مجلة صغيرة اسمها « لا كونك » فى مارس سنة ١٨٩١ ، وكان يطبع منها مائة عدد فقط ، ويعاونه فى تحريرها كتاب تملأ اليوم أسماؤهم فرنسا ، مثل أندريه چيد وبول ڤاليرى وهنرى دى رينيه

وكان أول من لفت الأنظار الى بيير لوئيس ودفعه إلى طريق المجد ، القصصى الشاعر الكبير فرانسوا كوبيه ؛ فنى مارس سنة ١٨٩٣ ظهرت قصة لوئيس المسماة « افروديت » ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى تناولها كوبيه بالنقد فى جريدة « الجورنال » وكان مما قاله يومئذ ما يأتى : (انه لم يكتب مثلها فى النثر الفرنسى منذ « قصة المومبا » و « سلامبو ») . ثم قال : إنها قصة خليعة جدا ، فهو يوصى بقراءتها للفنانين ، وللفنانين وحدهم ، وكان ذلك كافياً لأن تلقى « افروديت » ذيوعاً عظيما ، وأن ينحدر بيير لوئيس بسرعة الى طريق المجد

وما فعله فرانسوا كوبيه مع لوئيس ، فعله لوئيس فيما بعد مع كلود فارير ؛ فقد أصدر فارير كتابه « المتمدنون » سنة ١٩٠٥ ، وتقدم لينال به جائزة جونكور ؛ وكان بيير لوئيس أحد العشرة الذين يؤلفون المجلس ، فأذاع بعد قراءتها فى كل مكان أنها لا تقل فى الروعة والابداع عن قطع « ميرميه » ؛ وهكذا نال فارير جائزة جونكور ، وأضحى بفضل لوئيس علماً ذائع الصيت ، ولم ينس فارير لبيير لوئيس هذا الفضل ، فلبث طوال حياته يرعاه بحبه ورفيع تقديره

عناصر الحركة الهتلرية

ألقى المسيو هنرى بيجه ، وهو من أعضاء مجلس الدولة الفرنسى ، فى « أكاديمية العلوم الأخلاقية » محاضرة عنوانها « الدولة الألمانية الثالثة والنظريات الاشتراكية الوطنية » ، وهى خلاصة بحث دقيق قام به لدرس خواص النظام الهتلرى ؛ وخلاصة رأى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية إنما هى ظفر حزب وظفر نظرية قاما على « تفاعل عناصر اليأس وعناصر الخرافة » ؛ وأما مثل هذه الحركة فتنحصر فى ثلاثة أشياء : نظرية الجنس أو الوحدة الشعبية Volkstum ؛ ونظرية الزعيم Fuahrer ، ونظرية الاشتراك Gemein Dchaft . وتقوم الحركة من الوجهة النظامية على المزج بين الدولة والحزب والشعب واعتبارها أسماء ثلاثة لمسمى واحد ؛ متعارضة بذلك كل التعارض مع النظام الديموقراطى الحر الذى يقوم على فكرة الفرد والدولة ، ويفرق بينهما أتم تفريق . ويرى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية رغم قوتها الحاضرة ، تحمل عناصر فنائها ، وأن هذا الفناء ليس بعيد الحدوث

كتاب جديد عن الملكة فكتوريا

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الملكة ڤيكتوريا بقلم الكاتب والمؤرخ الانكليزى ا . بنسون . ومع أنه يقع فى مجلد واحد ، فقد ألم بحياة الملكة العظيمة إلماماً قوياً ، ويستند مستر بنسون فى معظم آرائه على خطابات الملكة ذاتها ، ولاسيما فى أعوامها الأخيرة . وهو لايعنى بتحرى الصور الشائقة أو المثيرة ، ولكنه يسير فى بحثه بهدوء واتزان ، ويحلل أخلاق الملكة وموقفها من الشخصيات الكبيرة التى كانت تعمل معها ، ومما يدلل عليه مستر بنسون أن الملكة ڤيكتوريا أبدت مواهبها العظيمة فى عصر متقدم جداً ، فرسائلها وهى فى الثالثة عشرة لاتختلف كثيراً عن رسائلها وهى فى الخمسين من حيث القوة والاتزان وحسن التدليل ، ومما هو جدير بالذكر ما يعرضه مستر بنسون عن معركة الملكة فكتوريا مع وزيرها الشهير جلادستون ، فقد كانت ثمة بين الشخصيتين العظيمتين معركة ملأت أيام الملكة الأخيرة ، وكان الحق فيها فى جانب الوزير ، ولكن الملكة صمدت فيها إلى النهاية

من روائع الشرق والغرب

المنصــــور Almansor

للشاعر الألمانى هاينرخ هاينه Heinrich Heine

نقلها عن الألمانية

الدكتور زكى محمد حسن

الأمين العلمى لدار الآثار العربية

هاينرخ هاينه شاعر غنائى وكاتب ألمانى ولد من أبوين يهوديين بدسلدورف سنة ١٧٩٧ ودرس الحقوق ولكنه هجرها إلى الأدب وذاع صيته فيه سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٢٧ حين ظهر كتابه « صور رحلة » Reisebilder عن طوافه فى ألمانيا ، وما لبث أن نشر أحسن شعره فى ديوان سماه كتاب الأغانى Buch der Lieder قابله القراء فى ألمانيا بحماسة تفوق الوصف

واعتنق هاينه الدين المسيحى سنة ١٨٢٥ ، ولكنه كان فى الحقيقة متشككاً فى كل شىء ، إباحيا جد الأباحة ، مستهتراً كل الاستهتار . وفى سنة ١٨٣٠ هاجر هاينه إلى باريس فاستوطنها واشتهر فى أنديتها الأدبية حتى توفى سنة ١٨٥١ بعد أن أقعده الشلل فى أواخر حياته

وظل الألمان يعدونه من أكابر كتابهم وشعرائهم حتى كان الانقلاب الأخير ، فنمى الهتلريون عليه أصله اليهودى فانقلبوا على ذكراه وهدموا ما أقيم له فى ألمانيا من أنصاب وتماثيل

وامتاز هاينه بأسلوبه التهكمى اللاذع ووصفه الدقيق المشرق ، بيد أن أهم ما خلد ذكراه حتى الآن وسوف يخلدها طويلاً إنما هى أغانيه فى ديوانه الذى أشرنا إليه ؛ وانا ننقل منه إلى العربية القصيدة الآتية التى يعجب الألمان بها كثيراً على الرغم من تعريضه فيها بالمسيحية قال :

فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة
تقف أعمدة ثلثمائة وألف ،
ثلثمائة وألف من الأعمدة الشاهقة تحمل القبة العظيمة الضخمة

وعلى الأعمدة والقبة والجدران تجرى وتنحدر فى كل اتجاه
آيات القرآن العربيــة فى حروف مشبكة مزهرة مزخرفة

قديماً بنى ملوك العرب هـذا البيت تمجيداً لذكر الله ،
بيد أن أشياء كثيرة قد تغيرت فى هذا الدهر ذى الأحداث الظالمة !

فعلى المنارة حيث كان المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة ،
ترسل الآن أجراس المسيحية رنين دقاتها الحزينة

وعلى المنبر حيث كان المؤمنون يرتلون كلام النبى ،
يعرض الآن القسس الصغار الصلع أعاجيب قداسهم المضجر !

وهناك دوران والتفاف ، حول نساء كالعرائس المنقوشة
بالألوان المختلفة ، وهناك ثغاء وتبخر وأصوات نواقيس ،
بينما الشموع الغبية ترسل أضواءها

فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة ، يقف المنصور بن عبد الله
يتأمل الأعمدة فى سكون ، ويغمغم بالكلمات الآتية :

إيه أيتها الأعمدة القوية الجبارة
التى ازينت ذات يوم تعظيما لله
ها أنت ذى الآن مضطرة إلى أن تقدمى للمسيحية المشنوءة
فروض الطاعة فى ذلة وخنوع

أنت على ممر العصور ترضين وتقنعين ،
وأنت تحملين العبء بصبر واستسلام ،
فكان جديراً بمن هو أضعف منك أن يكون أسهل انقياداً
وأسرع خضوعاً

ثم يطأطئ المنصور بن عبد الله رأسه ذا الوجه الطلق فوق حوض المعمودية المزخرف فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة !

***

وهرول المنصور من الكنيسة مسرعا ،
فامتطى جواداً عتيقاً جموحاً انطلق به ،
حتى صارت خصـــلات شعره المبللة
وريش قبعتـه تهتز فى الريح

فى الطريق الى القليمة [١] على ضفة الوادى الكبير
حيث تزهر شجيرات اللوز وشجيرات البرتقال ذات الرائحة الزكية

هناك يسير الفارس المرح وهو يصفر ويغنى ويضحك
والطيور تشاركه فى شدوه
وخرير النهر يتابعه فى طربه

وفى قصر القليمة تقطن « كلارا دى الفارس »
ووالدها يحارب فى نافار ،
فهى تتمتع بحرية أوسع وأمنية أوفر .

ويسمع المنصور على بعد أصوات الدفوف والطبول ،
ويرى أضواء القصر تتلألأ بين الأشجار والحقول

فى قصر القليمة ترقص اثنتا عشرة سيدة بثيابهن المزركشة ،
ويرقص اثنا عشر فارساً بحللهم المطرزة
ولكن أجملهم رقصاً وسمتا هو المنصور بن عبد الله !

كأن له جناحين من البهجة والسرور !
فهو يرفرف فى القاعة هنا وهناك !
وهو يعرف كيف يقول لكل حسناء ،
عبارات الملق والغزل والاطراء

فيدا « إزابلا » الجميلتان يقبلهما بشغف ، ثم يقفز مسرعاً
ويجلس إزاء « الفيرا » فيقبل عليها بوجهه الفرح

وهو يسأل « ليونورا » ضاحكاً :
هل كانت تحبه اليوم ؟
وهو يريها الصليب الذهبى المطرّز فى معطفه !

وهو يؤكد لكل سيدة أن صورتها مرسومة فى قلبه مقسماً ثلاثين مرة فى تلك الليلة « ما أنا مسيحى ! »

* * *

فى قصر القليمة انتهى المرح وساد السكون
واختفى الرجال والنساء ، وانطفأت الأنوار

وبقيت دونا كلارا والمنصور وحيدين فى القاعة الكبرى
بينما كان آخر مصباح يبعث بضوئه فى عزلة وانفراد

فعلى المقعد الكبير تجلس السيدة ،
وعلى الكرسى الخشبى يجلس الفارس
ورأســـه الذى أضناه التعب
يســـتريح على ركبتى حبيبته

وتصب دونا كلارا باحتراس وهى تفكر
عطرا من قنينة ذهبية فوق خصلات شعره الأسمر
وهو يتنهد من أعماق قلبه

وتطبع وهى غارقة فى لجة التفكير قبلة حلوة من فم رقيق
على خصلات شعره الأسمر
فتعلو السحب جبهته

عبرات من عيون مضيئة
تسكبها الحسناء وهى تفكر
على خصلات شعره الأسمر
فيقبض سريعاً على شفتيه

ويحلم المنصور كأنه يقف ثانية مطأطىء الرأس والجبين
فى كنيسة قرطبة الكبيرة
يسمع كثيراً من الأصوات العميقة

وكل الأعمدة الشاهقة يسمعها تتمتم محتجة متضجرة
فهى لا تريد أن تحتمل أكثر من هذا
وهى تميل وترتعد

وهى تتهدم مزمجرة ، ويكفهر الشعب والقسس
وتهوى القبة فى صوت عظيم
وتولول آلهة المسيحية

زكى محمد حسن

(١) ضاحية من ضواحى قرطبة غير مسكونة الآن

الكتب

١ — حياة محمد : للدكتور محمد حسين هيكل
٢ — قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث

للأستاذ جمال الدين القاسمي

للأستاذ محمد بك كرد علي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

— ١ —

مؤلف « حياة محمد » أشهر من أن يعرف ، برع في تصوير الرجال وآخر ما كتبه سيرة أعظم رجل قام في الأرض ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وقد وضع الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي مقدمة الكتاب وأبدع ؛ وكاد الاجماع يتم على استحسان ما كتب المؤلف الذي قال إنه توخى الأسلوب العلمي الجديد ، وما خلا كلامه من خطابيات تكررت معانيها ، فخرج السفر عن الرسم الذي وضعه له صانعه أحياناً . ووقع له غير مرة أن مثل لبعض الظواهر في التاريخ المحمدي بحوادث عصرية لا دخل لها في الموضوع ، فقد مثل في قصة زينب بنت جحش بمدام ركامييه (ص ٢٩٢) ولا معنى لهذا الاستطراد

وأحسن المؤلف في تعليل بعض حوادث السيرة مما كان يتخذ منه من لا يقول بالاسلام سلاحاً يحاربه به على غير هدى ، على حين اختلف أحبار الأمة في توجيهه ، ومن ذلك مسألة تعدد زوجات الرسول . ووقع له (ص ١٦٦) في الكلام على بيعة العقبة أن وجه صيغة بيعة النساء إلى الرجال ، والآية الكريمة صريحة في أن الخطاب للنساء ، ولذلك سميت بيعة النساء (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى « ولا يعصينك في معروف » قال إنما هو شرط شرطه الله تعالى للنساء ، ومعني لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن أي بولد ملقوط ينسبنه إلى الزوج فان الأم إذا وضعت الولد سقط بين يديها ورجليها

وقد تابع بعض المؤرخين في دعوى أن الرسول اجتمع ببَحيرا الراهب في بُصرى (ص ٧٦) وأنه عليه السلام اتصل في رحلته الثانية إلى الشام « بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأحبارها وتحدث اليه الراهب نسطور وسمع منه » ، وهذه الرواية في اجتماع الرسول ببحيرا ونسطور لا تستند إلى أصل تاريخي صحيح ، ولذلك أوردها ابن كثير في البداية والنهاية بصيغة الشك فقال : « زعموا » ولم يرد ذكر لبحيرا في كتب السريان ؛ ومعنى بحيرا بالآرامية « المختار » ، والذي يعنينا أن بحيرا اختلف الناس فيه : فمن قائل على ما في الروض الأُنُف أنه كان حبراً من يهود تيماء ، ومن قائل على ما ورد في المسعودي أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ؛ وفي سيرة ابن هشام أن بحيرا كان اليه علم أهل النصرانية ؛ ويقول ابن الجوزي في عيون التاريخ والسير إن أبا طالب لما ارتحل بالرسول تاجراً قِبَل الشام نزل تيماء فرآه حبر من اليهود ، ويقال إنه بحيرا الراهب ، فقال : من هذا الغلام معك ؟ قال : هو ابن أخي ، قال : أشفيق عليه أنت ؟ قال : نعم ، قال : فوالله لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود . ويقول ابن كثير إن الذي يظهر من سياق قصة الراهب أنه كان راهباً نصرانياً . ويقول الزهري إنه كان حبراً من أحبار يهود . واختلفوا في عمر الرسول يومئذ ، فمنهم من قال إنه كان في الرحلة الأولى ابن سبع سنين ، ومنهم من ادعى أنه كان ابن اثنتي عشرة سنة لما وافى بصرى في رواية ، أو تيماء في أخرى . ويقول ابن سعد في الطبقات إن بحيرا قال لأبي طالب : احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به الى الشام ، إن اليهود حسد وإني أخشاهم عليه . وتناقض هذه

الروايات فى دين الراهب بحيرا أكان نصرانياً أم يهودياً ، وتناقض الرواية فى محل هذا الاجتماع : هل كان فى تيماء أو فى بصرى من أرض الشام يوقع الشك فى أمرها ، وكذلك الحال فى الرحلة الثانيـة واجتماع الرسول بنسطور . والجواب لمن يريدون أن يتخذوا من هـذه الرواية سنداً ليقولوا إن الرهبان كانوا يعرفون أنه سيظهر من العرب رسول تختم به الرسل ويدعو الناس إلى التوحيد ؛ الجواب إن ذلك لا يتعلق به أمر كبير فى إثبات نبوة الرسول ؛ والجواب على أعداء دين الرسـول من أنه أخذ عن هـذه الرهابين أن ابن سبع سنين أو اثنتى عشرة وهو عابر سبيل مع أهله لا يعرف الأخذ عن أحد ، والرحلة الثانية الى الشام لم تتجاوز مدتها شهرين فى أصح الروايات جيئة وذهاباً ، ونسطور هذا مجهول الهوية والمكان

وأهم ما فات المؤلف كونه لم يذكر أن المسلمين قوى أمرهم أول الاسلام باسلام عمر بن الخطاب ، وأنهم أخذوا يدعون الى دينهم جهرة وكانوا يدعون اليه على تقية ، ويصلون فى دار الأرقم خائفين يترقبون أعداءهم من قريش ، فأصبحوا يطوفون فى الكعبة ظاهرين

— ٢ —

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهى : إما شيء لم يسبق اليه فيخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره ، دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه . قال : وينبغى لكل مؤلف كتاب فى فن قد سبق اليـه ألا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلاً ، أو جمعه إن كان مفرقاً ، أو شرحه إن كان غامضاً ، أو حسن نظم وتأليف ، أو اسقاط حشو وتطويل اهـ

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه فى التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط ، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات فى علوم الحديث ونسقه وجوّد النقل ، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً . فقد نقل فى أول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب فى أربعمائة صفحة) من أقوال القدماء ، ثم أثبت له رأياً واحداً سُبق اليـه (ص ١٠١) رجح فيه رأى الجلال الدوّانى على رأى الشهاب الخفاجى فى عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت فى شيء من الترغيب والفضائل

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام فى بعضها عن الدعاية والتمجيد . قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما أخذ عن بعض المتصوفة ومجدّديهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ونقل عن مجلات غاضاً عن ذكر أسمائها ترفعاً على ما يظهر

وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً فى هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات فى صورة مؤلَّف . وكانت طريقة التأليف فى عهود الارتقاء العلمى أن يأتى كلام المؤلف أكثر من شواهده ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطى أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمى رحمه الله ، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة فى الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى فى أكثر تآليفه ببسط آراء غيره

أما طريقة التأليف اليوم فالايجاز من دون اخلال بالمعانى ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، وإذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار اليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارئ وقته وتملأ صفحات بلا داع . وعلى هـذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا فى موضوعات اسلامية أو عربية ، تمثلوا ما وضعوه من المباحث أولا ثم كتبوه فى صحف لتنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا فى موضوعهم ، عازين ما لابد من عزوه لأصحابه تدعيماً لأقوالهم من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لا خلل فى تضاعيفها ولا شقوق ؛ وهم اذا اقتبسوا اقتصروا على محل الشاهد ، وأعرضوا عن باقى ما قال المقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة أوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ؛ وكم من كتب للسلف وفت ورقاتها المعدودة بأكثر مما تفى المجلدات . وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت أكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته

محمد كرد على

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الثالثة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الثالثة

(١)